العطشانة



العطشانة

عيسى الشيخ حسن

العطشانة

رواية

الكتاب: العطشانة
المؤلف: عيسى الشيخ حسن
رواية

جدار للثقافة والنشر | الإسكندرية
www.jidar.net | info@jidar.net

الطبعة الأولى
تصميم الغلاف: جدار للحلول المستدامة

THE THIRSTY VILLAGE

By: **Issa Al Sheikh Hasan**

Novel

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-4461-5831-9

الإهداء:

إلى قمر الحكايات البعيد

فدغة الحمّود.. حبّابتي

كان حزنك النبيل الجرّة التي غمسْتُ فيها ريشتي..

[1]

- مدَد

صرخ الشيخ، بل تلطّف في صراخه، بل كاد يبكي حين خرجت الكلمة من شفتيه ولسانه المضموم على المدّ الذي استحال واوًا، بل بكى.

كانت استغاثة الشيخ تطويرًا لنشيد سابق، لم أعد أتذكّر منه، غير عبارة «نظرة عليَّ»، وكانت «عليَّ» المتبوعة بهاء لطيفة، تفعل فعلها بالمريدين والحاضرين، والنسوة اللاتي يراقبن المشهد بعيون نائسة بين الفضول والخوف. ولا بدّ أن الشيخ وقد غاب في مشهدية الوجد، واكتسى وجهه ملامح البشر والدعة والرضا، قد نسي ابنه الذي لم يأت من الجيش منذ أربعة أشهر، وزوجته التي تعاني من مغص كلويّ مزمن، نسي سني المَحْل، ونكسة حزيران؛ فقد بقي هناك، في الأعلى، خفيفًا، منتشيًا، وتحلّق حوله المريدون وقد وحّدهم الإيقاع «اللّهْ أللّه.. اللّهْ أللّه.. » في خيط منغوم، لا يقطعه غير مجذوب، يكشف عن بطنه يهمّ بغرز «الدرباشة» فيها.

كانت ليالي حزيران الأخيرة، الموصولة بتمّوز، تعلن عن سهرات الشيخ بعد وجبات عشاء مختلفة، تكون فيها البندورة سيّدة الطعام، في الطبيخ اليومي مع البطاطا، أو الفاصوليا، أو الكوسا، فإن كان الباذنجان فهو المطبّق، الذي تجيد المرأة طبخه بعد قلي الباذنجان بوفير الزيت، وسكب البندورة المفرومة، رفقة التوابل المتاحة، ولم تكن تتعدّى البهار الأسود والكمّون. يتلو العشاء بالتأكيد صحن كبير، تقطّعت فيه «دبشية كبيرة» إلى حزوز صغيرة، استبقت فيها المرأة القشور، كي يتوقّى بها الضيوف ماء الدبشيّة.

- مدَااااااااااااااااااااااد

منذ ســنين والشــيخ يصــرخ مدد، والدفوف على الجدار، مثلما هي، بعدما تعهدها طالب شابّ موهوب، في رسم قبّة خضراء، ودائرة حروفيّة تتشابك فيها حروف: «لا إله إلّا الله محّمد رسول الله». والمسابيح الطوال ذات الــ 99 حبّة معلّقة أيضًا بشراشيها الخضراء، ولمعة الزيت على حبّات الخشــب المحفوف بعناية حتى كأنّها حجرٌ ململوم من ضــفّة الفرات. وكان العســكريّ الشــابّ قد عاد من الإجازة قبل يومين، فاســتبشــر الشــيخ، وصــنعت له أمّه ثريدًا بالحليب ضــحًى، ونظرت إلى دجاجاتها، تتخيّر أيّها تصلح لطعام الشابّ العائد من العسكرية متعبًا، برأسه الحليق، وشاربه المرسوم فوق شفتيه بعناية فائقة، وبصرامة أيضًا، وقد اكتسب الوبر الخفيف قسوة ولمعانًا. وتناسـت مرضـها، ورضـيت أنّ الأعمار بيد الله، وتحمّلت وخزاتها المتباعدة، وأضافت إلى دواء الحكيم وصفة شرب منقوع البقدونس، كما وصف لها أحد ضيوف الشيخ قبل شهرين.

[2]

ولكنّ الصـيف طويل، وليسـت جميع الليالي أماديح، ثمّة أهل الدّنيا ولهم نصـيبهم من الفرح، ولم يحدث في القرية أن اجتمع مديحٌ مع عرس. وفي الصـيف تسـيل الحنطة من مزراب الحصّـادة، إلى جيب أبي العريس، ثمّ إلى جيب أبي العروس، وفي القرية للمديح وحفل الزفاف الجمهور ذاته، والمجاذيب ذاتهم.

يدرك الشـيخ أنّ نهر الحياة لا يقف عنده، فيقف غير بعيد، وهو يرى جمهوريّة السـعادة الثانية، تنصـب أعلامها، ونشـيدها، وتخطف منه الليالي المباركة، فيدرك أنّه إذا حاربهم فسـيخسـر الرهان، فآثر الصـبر في الصيف المجنون، الذي تتجمّع فيه الأعراس عند المواسم الخصيبة، وهو يرى شـبابًا صـغارًا، وفتيات دون العشـرين، يكوّنون عائلات صـغيرة تحت كنف الأهل ورعايتهم، قبل أن يسـتطيعوا «العزلة»، وقد تتعثّر زيجة أو اثنتان، فيقول أحد مريديه «جيزات الگيظ.. تعاليل الشتا».

ولم يكن انتظار الفتيات والفتيان حلول المسـاء خفيفًا، بل كان قطعةً من العذاب والأمل والتوجّس، واختيار أجمل الثياب، والكحل، ومراعاة الأمّهات المتبرّمات والأهل الغيورين، فتنشـط البنات منذ العصـر في كنس الحوش، وطبخ العشاء، ولمّ السفرة. ثمّ الاستئذان الخجول.

«بير الشمالي نازح
يا عرب لا تردونو
ولفي غزال مضمّر
ومكحّلات عيونو»

وما إن يهبط الدبّاچة حتى ينفخ الشاعر في «زمّارته» من جديد، فيواصلون ضرب الأرض بأحذية اشتروها من ماركة «دبّاس» أو من محلّات يوسفان،

أو تلك الإيطالية المستعملة التي جاء بها عبّود البرهو من بيروت. أحذية تتحدّى عنفوان الشباب ودبكات العرس المختلفة، من «القوصار» إلى «الولدة» أو «الخمسة»، فيتوحّد الجميع بالإيقاع، وحين يصل الإيقاع ذروته، يقعد الشاعر أمام أكثرهم حماسة نصف القرفصاء، مثنّيًا «ركبة ونُصّ»، عازفًا له وحده بضع دقائق، وقد يجد من يضرب أمامه مشطًا من الفشگ، أو من تهلهل فوقه من ورائه إن كانت أمّه أو أخته وقد بدا «زين الشباب» تحت المجهر، نجم المكان، ثم يقف الشابّ مخرجًا من جيبٍ غريب موارب أوراقاً خضراء من «أمهات الـ100»، وينثرها فوق الشاعر، وعندما تهدأ الدبكة تمامًا، يعيد الشاعر للشابّ نقود العائلة، فيعطيه الشابّ أعطية متفقًا عليها بين الجميع.

ينتصف الليل، ولا ينتصف التعب، غير أن «مايسترو» الحفلة، ذلك الرجل الكهل «المتصايب» من أمرٍ ما، يأمر بفضّ الحفل، فيعود الشباب وقد ملأتهم النشوة، وصورٌ خزّنوها لذكرياتٍ لا تبيد، وقد يأخذ الذوّاقون الشاعر إلى بيت أحدهم، ليغنّوا الموليّا، مردّدين وهو يضربون بدفّ، قد يكون من دفوف الشيخ.

لا يحضر الشيخ الحفل، ولا يلوم مجاذيبه، ولا ابنه الذي خفّفت الدبكة من قلقه، لأنّ «المازونيّة» أوشكت أن تنفد، بل يبتسم، وهو يسمع صوت باب الحوش يغلق، وربّما «قاقى» ديكٌ خطأً قبل أن يولد فجر اليوم التالي، فينظر الشيخ إلى ساعته، مستمدًّا الضوء من حجارة الكهرمان الدقيقة المنثورة على تدريجة الأرقام، فينام بعض ساعةٍ أخرى، أو يمسح المكان بعينه، وقد التفّ أولاده باللحف، بعدما خفّت نسائم غربيّة على خجل، وركضت في سهل الجزيرة الفسيح.

[3]

لم يكن ذئبًا خالصًا. ربّما كان سبعة ثعالب نزقة تجمّعت تحت ذلك الثوب، ولم تكن تلك «الحصينيّات»[1] تخذله، حين يتراجع قليلًا من موقف حازم اتّخذه، فتعجب كيف تحوّلت تلك الصرامة إلى مائدة أخرى فيها من مقبّلات معسول الحديث ما يجعل عشا المجدّرة أشهى من «كباب حلب».

كان جمعة السطّام ذئبًا، وفي أحايين قليلة كان «سبع السبمبع»، فلا يتعدّى سفيهٌ على غريب في حضوره، ولا يتنمّر مراهقٌ على أطفال مادام صوت أبو راكان في الحيّ، ولم يكن جمعة ابن الأربعين قد تبحّر في العلم، كما فعل أترابه الذين درسوا حتى «الباكاروليا» ومنهم من أكمل في الشام، ولكنّ جمعة أخذ التاسع، بدرجة 122م، فزفّته الحارة يومها وذبح أبوه ثلاث نعجات، وعملوا له مولدًا وزّعوا فيه السكّر، والشراب. واستبقاه الحاج سطّام في البيت، وأطلق يده في مصلحة التراكتورات التي بدأت بتركتور واحد اشتراه الحاج في الستينات، تراكتور سوميكا برتقالي، ثم أتبعه بتراكتور ثانٍ بعد سنة الخصبة، ثم تتالت الجرّارات، ومرفقاتها من أدوات الحراثة والنقل.

ولكن جمعة لم يكن ذئبًا فحسب، وتقسم فاطم ابنة عمّته أن حمامات يهدلن في صدره، فلم يصدّقها أحد. تزّوجت فاطم العثمان بعدها بسنتين. كان أبوها عثمان العلي الناصر في زيارة لقرية النوايفة يبحث عن بذار، وفي بيت حمّادة الإبراهيم قالت له زوجة صديقه ما تعطينا بنتك لإسماعيلنا؟ تراه خلّص العسكرية، ووظيفتو جدّامو،

---

[1] - الحصينيات: كناية عن الدهاء والحيلة نسبة إلى الثعلب الذي يسمى في تلك المناطق الحصيني ويكنى بأبي الحصنان.

أعطيناك بذار، اعطينا أرض.. فقال لها كما يقال على سبيل المجاملة، نتشرف.

لم تكن الذئاب في صدر جمعة السطّام قد تشكّلت بعد، ولكنّ الحمامات التي ادّعتها فاطمة انخنقت دفعة واحدة، وشاهد الناس كيف مال التراكتور جهة التلّ وانقلب، وسَتْرُ الله وحده، هو الذي أنقذ جمعة. قال له الحاج سطّام، من باجر أخطب لك أحسن وآصل من كلّ بنات عثمان، وانتظروا كي يشفى من رضوضه الخفيفة، كي يبحثوا له عمّن تسدّ المكان الذي انهدّ فيه برج الحمام.

لم يكن سطّام مختار قرية المرازيق، ولم يكن شيخها أيضًا، يوم كان المرازيق يبيعون قطعانهم، ويبنون دور اللبن، ولكنّ سطام بن هلال كان نموذج العاقل النشيط، سرح عند البدو في شبابه، وجاء بعد سنوات، وفي حزامه العريض ذهبٌ كثير، يقول الحاج سطّام إنه كان نحو حفنتين، فوسّع دار أبيه هلال، وتزوّج ابنة عمّه وضحة، واشترى أرضًا، وحلالًا، ما لبث أن باعه واشترى أول تراكتور سوميكا في عموم عرب النافع.

في المدرسة كان المعلم الوحيد القادم من إدلب قاسيًا، رفقة عصا قصيرة، يحاول فيها قتل الجهل والمرض والغربة، ولكنّ الآفات الثلاث ظلّت مثلما هي، لم تجدِ العصا مع أطفال ملتصقين بواقعهم. يمكن القول إنّ طلاب النافع تقدّموا في السنة الأولى من «العيش ع الزلطة»، فالأطفال يتسرّبون باستمرار في مواسم «االلقاط» والربيع، والطوفان، والثلج. حدث هذا أمام الأستاذ محمود بيطار المعلّم الوكيل، وطالب الفلسفة في جامعة حلب، وكان في الليل يعدّ النجوم، ويلعن أبو الغربة والفلسفة، ثمّ ينام عندما يهدأ البعوض.

يسـمّونها المظلة، تشـتّي الدنيا بضـعة أيّام، ثم يعود الحرّ من جديد، كانت مكاتيب مبكّرة للشـتاء، يأخذ الفلاليح محاريثهم ويبذرون الحبّ، ويقضـون سـحابة يومهم وراء دوابّ مُتعبة، تذهب في خطّ وتأتي في خطّ، وفي الأفق يلوح تركتور سـطام السـوميكا، وخلفه شـوفير معفّر بالتراب، وفوقه هناك طيور الكراكي تتّخذ أشكالًا جميلة في هجرتها الموسـمية نحو الجنوب.

أيّام المظلّة تلك يتحسّـن أداء طلاب محمود بيطار، وينظفون، وتمتلئ دفاتر الورق الرخيص بخطوط منسـجمة تعني أنّ الطلّاب بدؤوا يسـتجيبون، فيما ينتظر وجبة مكرّرة لطلابه مؤلفة من السـمن العربي والخبز والبيض، وقد يواتيه الحظّ فتصـنع له أسـرة مقتدرة طبقًا من البرغل بشـعيرية، أو يدعى إلى وليمة متقشّـفة إذ تذبح الأسـرة بعض طيور الدجاج قبل أن يقضـي عليها «أبو عريف» أو لحم عنزة لحقها الراعي قبل أن تموت وقد أكلت شيئًا ما، أو شربت شيئًا ما.

[4]

- ما فلحنا السنة.

قالت أمّ عناد، وتنهّدت، وأكملت فرز حبّات القمح عن الشوائب. كانت تنظر إلى الأرض، وتنتظر من جارتها الردّ، مؤدّيتين معًا الـ «ديالوغ» اليوميّ، وكأنه وِردٌ صوفيّ لاغنى عنه. ستقول جارتها مثلًا «إي يا خيتي، السنة ما حدا فلح»، أو «وين نفلح؟ حدا عندو حگ بذار؟».

في تلك الأصابيح من تشرين البعيد، كانت الشمس تختبئ في غيم ممزّق، فتطلّ من شباكه الواهية، رفقة هواء خجول، يرسم حبّات خفيفة في الجلد مع قشعريرة واخزة. وتعرف أمّ عناد أنّها ستستقبل مواشيها السارحة في الأراضي البور بعلفٍ خفيف، لابدّ أن يوفروه للبهائم منذ الحصاد.

في «الصّفِري»، ينقلب الحال، ينقلب الجوّ وتنقلب الأمزجة، تعدّ أمّ عناد دبس البندورة، ومخلّل «المكبوس»، وشجيج الباميا والگرع والكوسا والعوّين والباذنجان، وتعدّ البرغل، وتنتظر مجيء عربّة الفتّال، لتصنع الشعيرية، وتعدّ السمنة في الربيع ثمّ الجبنة، وقد تعدّ الهگط أيضًا، ثمّ توضّب وتملأ كلّ هذه الأطعمة في مواعينها استعدادًا لأشهر الإفلاس الطويلة. رفقة «چوايل الحنطة المصوّلة» التي ستُطحن شوالًا بعد شوال؛ فلا يحتاجون إلى المال، إلّا لكشفيّة حكيم، أو دفاتر الأولاد وأقلامهم، ومصاري التعاون والنشاط

- ما فلحنا السنة.
- الله كريم، يفرجها من أوسع «ابوابو».

وتنهّدت العجوزان في وقت واحد، ولكنّ الجارة العجوز، اقترحت اقتراحًا مفاجئًا، حوّل ساعات البرد الناشفة إلى ربيع مفاجئ.

- ليش ما تأجّرون الگاع، تعطونها بالنُّصّ. لا تحيّْلونها، ان شالله السنة خَصَاب، وجه السنة مبيّن زين.

ولكنّ الربيع عاد إلى حيث هو، وتحرّكت غيمة بعيدة، مواجهة الشمس الخجولة، وقال الولد الصغير «حبّاب.. بردان» فغطّته بدرّاعتها، وفكّرت أن تشعل نارًا، ولكنّها تراجعت، فوراء تشرين كانونان وشباط، ولا بدّ أن توفّر الحطب.

كان الشيخ يمرّ بالبيوت الفارغة حزينًا، ويذكر أيّام الصيف والجلبة، فينتظر مغيب الشمس، ثمّ يعشّي ساعته السويسرية، قبل أن يرفع الأذان، منتظرًا بعض الوقت، فيصلّي خلفه بضعة رجالٍ. وقد يسمعون معًا في بيت الشيخ الراديو وأخبار هيئة الإذاعة البريطانيّة التي تبثّها بعد دقّات مهيبة منتظمة، تسمّيها دقّات ساعة بيغ بين، فتحدث نون لندن الثانية أثرًا في نفس الفتى، وهي ترنّ رنينًا تاليًا لدقّات الساعة.

[5]

كانت التلاع القريبة تخبّئ وراءها البريّة التي تنهض القوافل الفقيرة إليها، فيما يظلّ ماعون الزّور في تلك الصائفة المتأخرة ملاذًا لصيّادي سمك الشبّوط، أو قاطفي القطن، وفي أحيانٍ كثيرة يسكن المكان، المثبّت بالبيوت، يسكن تمامًا، وتكتسب عبّارة الأمّ وهي تقصّ على أطفالها قصصًا ليناموا، فتقول: «لا هابوب ولا دابوب» معنًى جليلًا.

ولكنّ الضوضاء تعود فجأةً، حين نرى بعض العائدين من رؤوس المرتفعات، راجلين، أو على ظهور دوابّهم، وكانت القرية الحدّ الفاصل بين البريّة والفرات، يودّعون الذاهبين نحو الشمال أو الجنوب، قال حميدي العبد لله للشيخ، رافعًا يده وكأنّه يؤدّي تحية عسكرية، ليتّقي شعاع الشمس، وينظر إلى الجنوب:

- لاح لك مصطفى؟
- لا والله. قال الشيخ
- لا استگبل ولا استشمل، وين راح.
- الغايب حجّتو معاه يا حجّي

وصفق حميدي العبد الله يدًا بيد، وقال: ربّي سترك. ومضى إلى بيته، وكان ثمّة مبكّرات في العودة من الحقول، وقد كوّرْن[2] وراء ظهورهنّ شيئًا من خضار المقاثي، وسارعن إلى بيوتهنّ، منتظراتٍ عتاب الأولاد الصغار، الذين ملؤوا المكان صراخًا، رفقة عجائز غاضبات. وقد تسمع إحداهنّ عبارات من مثل: «من ها اليوم ما بي لگاط» فتسكت الأمّ الشابّة، وهي

[2] - كوّرن: حملن أغراضًا بعباءاتهنّ المسمّاة الصاية، فاتخذ الحمل شكل الكرة.

تعلم أن قطافها سيكفل للبيت «خرجيّة مناسبة» عندما تجفّ الضروع، وتنفد «مصاري» الحبّ، أو «حساب الگطن».

بعث الحاجّ خيالةً في كلّ مكان، يظنّون أن مصطفى ذهب إليه، أخواله على كتف النهر، قريتهم في البريّة، صديقه الراعي في الخربة. كان مصطفى يبحث عن نعجةٍ ضائعة، ضاعت منه حين اختلط الرعاة في ذلك الأصيل، وظلّ الرعاة يلعبون ويلهون حتى أظلمت الدنيا، فجرّ كلّ منهم أغنامه نحو أهله، وفي الصباح، تفقّد الحاجّ الحلال، وقال لابنه:

- خالطت حدا البارح؟

وتردّد مصطفى، قليلًا، وأراد أن يتكلّم، ولكنّه سكت، لأنه يعرف أنّ أباه لا يرضى أن تتخالط الماشية.

- ما ني شايف الجَرْنة الشگرة؟

ولم يُحرِ الشابّ جوابًا، بل راح يبحث عنها بين الحلال.. ثلاث مرّات، تفقد قطيعه الصغير، وبدأ يبحث للمرة الرابعة، ولكنّ الأب أوقفه.

- وين چنت سارح البارح؟

أبقى مصطفى مسافة كافية بينه وبين الحاجّ؛ لأنه يعرف أنّه سيغافله بصفعة هائلة، تعبّر عن غضبه. ولكنّ الحاجّ تقدّم إليه.

- وين چنت سارح؟

وهرب مصطفى مستقبلًا الفرات، وصرخ الحاجّ وقد رماه بعصا، أخطأت هدفها.

- خلّيني بسّ أگضبك.. واللهْ لاذبحك، يا عفن، يا جايف.

ولم يلتفت الشابّ.

كان هذا في الصباح، والآن وقد شارفت الشمس على الغروب، لم يعد الشابّ، وعاتبه بعض الرجال.

- علواه عيمة الغنم، من شان نعجة، تطرد ابنك.

ويهزّ الحاج رأسه دون أن يتكلّم، فيما أضواء الفوانيس، ولمبات الكاز تشارك الغروب لعاعة الضوء الخافتة، في مساءٍ جليل، ومن بعيد يلوح رجلٌ على حصانه مردفًا دابّة سمينة، وقد اقترب والرجال القلقون يراقبونه بوجل:

- السلام عليك
- وعليكم السلام
- هذي نعجة عوار، شفنا عليها وسمكم.

وتقدّم الحاج نحو نعجته الشقراء ذات القرون، وتذكّر يوم استصفاها من مجموعة الفطائم الصغيرة، جازمًا أنّها ستكون كأمّها ذات حليب.

- ما شفتونّا مصطفى؟
- لا والله يا حجّ

وصرخت امرأة في الجوار، ونهرها الرجال، وهدّأ رجلٌ حكيم من روعها:

- خبر السايةٌ[3] يصل بساع، الولد طيّب، والغايب حجتو معاه.

وفيما كان الشيخ عائدًا وحده من المسجد، وقد أدّى صلاة المغرب، استوقفه عابرٌ غريب، وهمس له شيئًا، فاستبشر الشيخ ودعا الغريب إلى البيت فاعتذر.

وهناك وبينما الحاجّ ينتظر مراسيله إلى الجهات التي يظنّ أن ولده ذهب إليها، سلّم الشيخ، ومع ردّ الجمع، قال:

- تطمّن يا حاجّ، ابنك طبّ حلب.

---

[3] خبر الساية: خبر السوء ويعني به الموت.

[6]

لم تكن علاقة الحاج حميدي بولده مصـــطفى مثلما هي علاقة أبناء الحيّ بأولادهم، ولم يحدث أن هشّ الحاج لابنه أو بشّ، وتعزو أمّ مصطفى ذلك إلى الحياة القاسية ذاتها التي عاشها الحاجّ صغيرًا بعد موت أبيه.

عاش حميدي يتيمًا، ورغم أنّ أمّه لم تتزوّج بعد أبيه، إلّا أنّ تدخل الأهل في حياتهم حوّله إلى كتلة غامضـــة صـــمّاء. كان في العاشـــرة يدير «البكرة مع دحّام العلي، جارهم «الشـــايب»، فيســـهران معًا يســـقيان «الچرد»[4]، وحين يربّعون كان حميدي «يســـني»[5] الماء، راكبًا كديشـــة عمّه عثمان، في حين تقف على البئر إحدى النســـاء القويّات. كلّ هذا يحدث في غياب الرجال، وحين كبر حميدي زوّجته أمّه، زوّجته قبل أن يخطّ شاربه، لتخرج العائلة من «تحت الخطيّة».

تعدّى مصطفى القرية بقليل، نحو الجنوب، وعندما غابت القرية عن العين، توّجه شرقًا حيث قرية الساكتة، يقصد عمّته سارة. لم تكن القرية بعيدة، وقد وصلها ضحًى، ثمة أطفال حفاة يلعبون، سمع أصواتهم وهم يدورون حول أنفســـهم: «دردخانة يا بو عبيد.. دردخانة يا بو عبيد» وثمّة صبيٌّ صغير وقع، وهو يصرخ، فتشجعه عجوز جالسة في ظلّ جدار تنفش جزّة صوف أمامها: «گوم گوم.. جوّاك زبيب».

[4] - الچرد: الحقل

[5] - يسني: ينتشل

حين شـاهدت مصـطفى انخطف قلبها، ولكنّها سـارعت للقائه وقبّلت خدّيه الذابلين، وسـألته عن صحّته، وغرفت له من الخابية طاسـة ماء، وحين شرب سألته بلهفة:

- وال خيّ شبيكم، أبوك بس مو صاير لو شي؟

وطمأنها مصـطفى، وتمدّد على أرضٍ باردة، مرشـوشـة، وتمنّى لو ينام قليلًا، لكنّه صـارح عمّته، أنّه عزم على ترك البيت، وخذلته دموعه حين حدّثها عن قسـوة أخيها، وطلب منها أن تقرضـه بعض المال، ليسـافر إلى لبنان، فقد أكمل السادسة عشرة، وحمل الهويّة، ويستطيع أن يعمل.

كانت بيروت قد فتحت أبوابها للعمّال منذ سـنوات، يسـافر إليها الرجال والشـباب، ويعودون بالمال في «الشـتويّة» وقد يعودون ببعض الثياب المسـتعملة، أو آلات التسـجيل اليابانية الحديثة، فيقتنونها أو يبيعونها، وقد يبقى بعضـهم عامًا أو أكثر، ومنهم من لا يعود، ومنهم من ينتمي إلى الميليشيات المختلفة ما دامت تدفع.

قالت له العمّة العجوز، وهي تمسح يدها الموشـومة برسـوم غريبة إنّ «المصـاري» في كلّ مكان، فيسـتطيع أن «يحوش» السـوس من «طارف الفراه»، أو «يعفّش» القطن، ولكنّ البلاد ضاقت على مصطفى، ولم يعد في إمكانه مداراة كرة الغضـب التي انفجرت اليوم، لم ينتظر توقيت السوق إلى الجيش، منتظرًا أنشودة الصبايا في الأعراس: «لْبِسّ البدلة وزرّ البوط، وغرّب ع العسكرية»، فدسّ الـ 50 ليرة الحمرا في جيبه، ومضى نحو المركز، ليركب السفينة الصغيرة «البرك»، فيعبر إلى الشاميّة، حيث طريق الكرّوزة المؤدّي إلى حلب.

[7]

هذه المطرة الأولى، وهذا أوّل الصّفري. ليس بردًا، ولكنّ قشعريرة خفيفة أصابت الأولاد الذين يركضون تحت المطر، ضاحكين، مردّدين: «مطر، مطر عاصي* طوّل شعر راسي* راسي بالمدينة* يا كل حبّة تينة»، تبادل الأولاد الصراخ. وملأت النسوة أفواه البيوت، ينظرن إلى الضيف المنتظر، يأتي على استحياء ثمّ يستبدّ، إيذانًا بأيّام المظلّة.

«ما هو مطر عشرة، هذا مطر بالصّحيح» قالت أمّ عناد، وطلبت من كنّاتها، لمّ الثياب عن حبل الغسيل، وتفقّد الحلال، وإشعال حطبٍ في الصّاج المقلوب، وسرى فرحٌ خفيّ، وصرخ أولادٌ عابرون: «يا ربّ زيدها، وكثّر معاصيدها»، وذابت الشمس على كتف الأفق، ذابت شيئًا فشيئًا، وكان الغروب يؤذن بلعبة جديدة؛ إذ سلّ الأولاد أعوادًا من الحطب، واشعلوا أطرافها، ثم دوّروا أيديهم بسرعة، مكوّنين دوائر حمراء، من رؤوس الجمر التي تسقط أحيانًا على جلودهم أو أثوابهم، فينقلب اللعب البهيج إلى بكاء وهلع.

واحتفالًا بموسم البرد الجديد، ستصنع أمّ عناد العدس، وسينتظر الجميع بلهفة، حين ينضج الطعام، وتحضّر لها العجوز «التقليّة» بزيتٍ كرديّ 1، تصبّه في «التوّاة»[6] حتى يغلي، ثم تغمس فيه البصل المقطّع فيحدث صوتًا تضجّ فيه فقاعات الماء بالصراخ، ثمّ تحملُ التوّاة من يدها الطويلة، وتسكب برفق فوق قصعةٍ كبيرة، امتلأت بحساء العدس.

«اثردوا لي» قال الابن الصغير، ولم تجد الأم خبزًا في «المخمر» ولكنّ الجدّة أرشدتها إلى خبز يابس، في سفرة الخيش، واستدركت أنّ اللقيمات

[6] - التُّواة: وعاء لقلي الزيت، ذو يد طويلة.

لن تكفي، فقالت له: «والْ روحنّا على عمامك الســماعين، كلّْهم عدْكم خُبُوز؟». وجاء الصــبّي برغيفين، وجلس الجميع، يحثّون ملاعق نحاســيّة نحو طعامٍ، حال بينهم وبينه الصيف الحارّ، وخضاره، وفاكهته.

قالت أمّ مصـطفى «وينك يا مصـطفى؟ شـــ جاعد تسـوِّي؟ جوعان؟ عطشـــان؟ بردان؟»، وهي تعرف أنّها أضـــافت إلى أســئلتها اليوميّة عند الغروب، ســؤالًا جديدًا عن البرد هذا اليوم، رغم أنّ جارتهم جاءتها قبل أيّام، ناقلة حديث الأستاذ محمود في «التعليلة التي ورد فيها ذكر مصطفى في بيتهم: «الاســتاز يگول: الزّلْمة ما يصــير زلْمِة، ألّا إذا تغرّبْ ثلْث ســنين، وصار عسكري ثَلث سنين، وانسجن ثلْث سنين».

كان محمود البيطار يتذكّر كلمات عمّه حســين، المعجب بهتلر. كان حســين البيطار شــابًّا حين نشــبت الحرب العالمية الثانية، وغزا هتلر العالم، ويذكر أثره في الشــباب، وكيف أنّهم قلّدوا تحيّته العســكرية، وقلّدوا شــاربِه «الذبابة»، ولكنّ كثيرًا من الشــباب ارتدّوا عن عقيدتهم الهتلريّة، بعد هزيمته.. وبدؤوا يقلّدون شوارب ستالين.

يتذكّر المعلم الشــاب عمّه، في قريةٍ نائية على كتف الفرات، وقد آنس من أهلها ما يجعله يتجاوز شــرط الرجولة الأوّل، وهو يعرف أنّ أمامه تجربتين أُخريين؛ الجيش، والســجن، وها هو الآن يقرأ «ألف باء» الفلسفة، وأمامه «كتير فتّ خبز» كما يقول عمّه حسين.

[8]

مرّت المْظِلّة، اثنا عشر يومًا بلياليها، لم تهدأ السماء، أمطار خفيفة، وتشتدّ أحيانًا، وفي إحدى الأماسي، صاحت أمّ عناد «يا ولُمْ الدّار تخرّ» وبات من المعتاد وضع مواعين الطعام تحت المناطق الضعيفة في السقف، وقد تسرّب منها ماء السماء. وامتدّت الأيدي إلى مونة الشتاء، الجبنة، ومكبوس الباذنجان، والچشچ، وامتدّت الأيدي إلى مونة البندورة الخضراء تحت التبن، بالبحث عن الحبّات التي احمرّت أو «لوّحت»، وبعد أسبوع نبت عشبٌ غزير في الأراضي البور، وأيقن أهل القرية أنّهم سيوفّرون بعض العلف.

وفي الصباح ينطلق إلى مدارسهم أطفالٌ صغارٌ يسمّعون لبعضهم أنشودة: «لعبتي» عاجزين عن تدوير أفواههم في بعض الألفاظ التي يتوالى فيها الضمّ ثمّ الكسر، المهارات التي أتعبت محمود البيطار: «قلبي يحِبُّها» ولكنّ حمّادة الصغير يسترسل في النشيد غير مبالٍ بتعاليم أستاذه، هازًّا رأسه: «ألبستها الحرير* فأوشكت تطير | أنغى من الصباح* أغوى من الرياح | يا حِلوتي اظحكي* كلّ الهوى لكِ»، ويتنهّد المعلّم مع عبارة "سليمان العيسى". وهو يتأمّل حُمّادة العلي، ابن السابعة، بثوبه الشتوي البالي، وحلاقة شعره المشوّهة، وهو في هذا الذكاء الذي مكّنه من حفظ قصيدة في نهاية الحصّة.

كانت عليا ابنة سطّام في الصفّ الأوّل أيضًا، رفقة حمّادة، وقد أعجبتها اللعبة في الصورة، ولكنّها لم تعرف من هي "مها" تلك البنت الجميلة، التي تحمل لعبةً جميلة. في البيت قالت لها أمّها «اكتبي وظايفچ تانروح على اجدادچ نتعلّل»، وهناك قبّلها جدّها وقال بصوتٍ عالٍ «ألّاا

.. عمامك ليـ كثِرْ جيشهم، وخوالك ليـ بردْ عيشهم»، وحين قعدوا في الدار، كان يرفعها بيديه، مؤدّيينِ معًا، حواريّة لطيفة:

- طاسة
- حليب الجمّاسة
- اطخّچٌ ألّا ارميچٌ
- طخني

فيرميها الجدّ من يديه المرفوعتين، إلى حيث الفرش الممدودة، فتضحك عليا، وتقول «أنّوب»، فيرفع الجدّ الشـاب رجليه، ويمسـك بيد حفيدته، ويسند بطنها إلى رجليه، فترتفع أكثر، ويستعيدان حواريّتهما:

- طاسوووووووو.
- شبهوووووووووو؟
- حليب الجماسوووووووووو
- أطخّچ الا ارميچ؟

بينما الأمّ الشابّة منشغلة مع أمّها، في معالجة أجراس القطن الصلبة اليابسة، وقد استنقذوه قبل أيام المظلّة، ويكون في العادة كسبًا لــ «راعية البيت» تعدّ به اللحف، فمنذ زراعة القطن، بدأ الناس يميلون إلى لحاف القطن البارد في الصيف، ولكن لا فراش يعدل فراش الصوف.

خرج الجدّ يريد التعليلة، ونادت الجدة عليا:

- تعالي ولي، سويت لچ عاجة.

وفرحت عليا بهدية جدتها، تلك اللعبة التي تماثل لعبة مها، تلك العاجة المكوّنة من خشبة صغيرة، ألبستها الجدّة ثوبًا، وملأته من عفارة القطن، بوجهٍ فقير، لا تبين معالمه، تمسحه عليا برفق، وتغنّي له:

- سميتها مها* قلبي يحبها

عندما عادت عليا من المدرســة في اليوم التالي، خرجت إلى الحوش، وأســندت لعبتها إلى الجدار، وقد مدّت تحتها «جِلالًا» نظيفًا، رفقة ابنة عمّــتها، وهي تغنّي: «يا بنيّات شــدّن عصــايبچن * ســبع ســنين ما حدا يجوزچن» ثم تتذكّر «لعبتي | ســمّيتها مها * قلبي يحبّها» وفي الأثناء، كان أبوها سـطّام قادمًا بجرّاره من بعيد، فتلقّته مبتهجة عندما توقّف، ونزل، ثمّ مدّ يده إلى جيبه، مخرجًا ورقة بيضاء مستطيلة، وعلى إطارها مربعات زرقاء وحمراء، قائلًا:

- هاچّ ودّي المكتوب لحبابتچ أم مصطفى.

فرحت عليا، وركضــت بكلّ قوتها، إلى بيت الحميدي، وعند باب الحوش قائلة:

- حبّاااااااب البشارة، مكتوب من خالي.

[9]

لم تدرِ عمشــة الخلف ماذا تفعل، امتزج كلّ شــيء بكلّ شــيء، البكاء والفرح و«الهلهولة» غير المتقنة، و«النعي» المرتجل، وقبّلت المكتوب. ولكنّها قامت إلى «النضــد» ودسّــت يدها تحت فراشٍ مقصّــب، وأخرجت ليرةً بحالها، دفعتها إلى عليا، وقبّلتها.

قبّلت الأمّ مكتوب ابنها ثانيةً وهي تبكي: «يا بني يي»، وركضــت إلى جارتها أمّ عناد، تبشّرها: «أريد حدا يگرا لي شـــ مكتوب». وبحثتا، وسألتا الأولاد الذين يلعبون في الحوش، فأرشــدوها إلى ابن الشــيخ، الذي ختم القرآن قبل سـنتين، ويقرأ كلّ شـيء «صـيحوا ليّ ياه» قالت أمّ مصـطفى، وركض الأولاد نحو زميلهم إبراهيم.

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى والدي الحاجّ حميدي العبدالله

روحٌ وريحان وجنّة النعمان، تهدي وتروح إلى عزيز القلب والروح، أمّا بعد، فإن جاز حســن ســؤالكم عنّا فأنا بألف خير، ولا ينقصــني غير رؤية وجهك الكريم. وقد وصــلت بيروت من 20 يوما، وأنا أشــتغل عامل في مكبس بلوك، وأموري كلّها بخير.

ســلامي إلى أمّي العزيزة ، وإلى إخوتي محمد وســلامة وأخواتي صــبحة وشمسة وفاطم، وإلى عمّي جمعة السطام وعائلته، وإلى عمّي علي العثمان وعائلته، وإلى خالي عثمان الجعفر وعائلته، وإلى عمّي الشــيخ يونس وعائلته، وإلى جميع العمام والخوال، فردًا فردًا، وكلّ من يقول ما لي سلام، له مني ألف سلام».

كانت الأمّ الوالهة تضع يدها على خدّها، وتهزّ رأسها مع كلّ كلمة، وحين قرأ الولد «إلى أمّي العزيزة» بكت، ولكنّها أكّدت على إبراهيم: «عفيا ابني اگرا ليّ ياه انّوب»، وقرأ الولد الرسالة ثانية وثالثة، والأمّ تبكي. وقد أدركت أنّ الصغير سئم من مشهد القراءة والبكاء، فشكرته، ودسّت في يده ليرةً بحالها.

أعادت عمشة الخلف الورقة المزخرفة إلى الظرف، وخبّأتها في عبّها، تتلمّسها، وتتذكر كلمات الولد إبراهيم الغامضة عن جنّة النعمان، و«حسن سؤالكم»، وعبارة «أمي العزيزة» فتبتسم ثم تذرف دمعًا بصمت، وتخفّ إلى مطبخها الصغير، فتقرّر أن تصنع طعامًا مختلفًا، فتخرج حفنة برغلٍ جديد مع شيءٍ من الشعيرية، وتخرج من ماعونٍ جلديٍ كتيم «الظرف» ملء قبضة يدها سمنًا أصفر اختلط بالدبس. وتقول: «مصطفى يحبّ البرغل مع الشعيريّة».

يتدارك الفلاحون ما بعد المظلّة لحراثة أراضيهم، وثمّة من لا يملك ما يدفعه لجمعة السطّام ثمن الفلاح.

لا يملك جاسم العلي من مال الله غير بيتٍ متداعٍ من الطين، وولدين صغيرين أنجبهما «على مِكبَر»، وقطعة أرض بعل، بعيدة عن الفرات. لم يبع الكهل بغلته عندما لجأ الفلاحون إلى فلاحة التراكتورات، وباعوا دوابّهم، بل أبقى عليها، رفقة «الفَدّان» القديم الذي اشتراه من سطام قبل سنين.

يكدّن جاسم العلي دابّته، ويعيدها إلى الوراء في حركة معتادة، حتى تصبح بين ساعدي الفَدّان، فيرفعهما، ويربطهما بالكدّانة، ثمّ يوجّه الدابّة صوب المساحات غير المفلوحة، يمشي أوّلًا وفي طرف ثوبه شيء من بذار الشعير، قائلًا: «بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الكريم، للطير

وما قســم الله، ع البركة يا ربّ» وما إن يفرغ من نثر البذار، حتى يســوق دابّته في خطّ مســتقيم، ترســمه البغلة العجفاء بهدوء وتعب، ووهي تنوء بجرّ سكّةٍ تحرث أرضًا رطبة.

يقف الكهل أحيانًا ليقضــي حاجته، أو ليصــلّي، أو ليراقب الكراكي العابرة بتشــكيلاتها الجميلة، أو ليأكل من زوادته الفقيرة شــيئًا من الخبز والتمر.

هبّت نســمةٌ باردة، اقشــعّر لها جلد العجوز، ولكنّه تجلّد، وصــرخ في بغلته التي تعثّرت: «دووو»، وأكمل خطّه، ومضى في خطٍّ آخر، أحسّ بتعبٍ مفاجئ، فقال لنفســه: «لازم اخلّص تالي بذار اليوم» ومضــى، ولكنّ أنينه صاحب العبارة التي يستحثّ فيها الدابّة «همممممممممممممم دوووو». ومرّ الرعاة الصغار جانبه، عائدين بأغنامهم القليلة إلى البيوت، وتمنّى لو كان ابنه خميس بينهم، وكانت قواه قد تلاشــت تمامًا حين ابتعد الصــغار، فوقع على الأرض، ورآه أحـدهم فنبّـه زملاءه: «ولوووووووووم شــوفم، جاسم العلي وگع».

[10]

كانت الشمس تنحدر نحو الغروب، شمس مريضة تعصب رأسها بغيوم ممزّقة، تحوّلها النسائم الخفيفة إلى قطع متناثرة، وما تلبث الشمس أن تستعين بمزقٍ أخرى شهباء، وهي سائرةٌ نحو الغرب البعيد. حينذاك، كانت جموع قلقة تركض نحو الشرق، حيث العجوز جاسم العلي، تلحقهم نساء حافيات يصرخن. وبدا كأنّ القرية قد خرجت عن بكرة أبيها، بعدما فزّعهم الأولاد.

كان الرجل مبلّلًا بالعرق، حين وصلوه، وقال سالم الصطاف: «الزلمة طيّب، خلّونا ناخذو على بيتو». فكّوا دابّته من الفدّان على وجه السرعة، ونزعوا عنها الكدّانة، ثمّ حملوا عليه الكهل، غير أنّ التراكتور كان مقبلًا، فنقلوه إليه، أجلسوه بجانب الشوفير، وركضوا خلف التراكتور إلى البيوت القريبة.

في البيت مدّت النساء فراشًا على وجه السرعة، ومدّده الرجال، والتمّ الناس، وصرخت أمّ عناد «وخْرمْ.. خلّم الزلمة يتنفّس» واقترب منه الشيخ، وعوش الصرّارة، وسعيد الصالح. كان الرجل يئنّ بهدوء، ووضع سعيد الصالح يده على قلبه، وقال: «گلبو يدكّ، بس حرارتو مرتفعة»، وقال للنساء الواقفات: «جيبونّا ميّ»، فسقاه بصعوبة بعض الماء، وقال: «لازم ناخذو على دكتور»، وكانت الشمس قد غطست تمامًا في بحر الظلمات، واشتعلت اللمبات النمرة 4 في القرية، وأضاء من بعيد «لوكس» واقترب الضوء، إذ جاء به شابّ غرّ ليعين الناس على تدبّر الأمر.

- الزِّلِمَة تعبان، لازم الدكتور يجيه.

ولم ينتبه أحد إلى الصـوت، ولكنّ جمعة السـطام، قام، وحرّك بيده مفتاح جرّاره، وقال: «أنا رايح أجيب الدكتور». ولكنّ باب الاجتهاد ظلّ مفتوحًا، حول صحّة الرجل، واجتهد غير واحد في وصفاتٍ معروفة، وجاءت امرأة من بعيد، تحمل طاسةً كبيرة.. «اشـرب عمّي، شـوية لبن»، وكان الصيف قد ضيّع اللبن، غير أن وضحة السماعين، كانت قد اشترت عنزين أوّل الصيف، اشترتهما من تاجر ماعز حلبي، كرمى لولدها المفطوم حديثًا.

حين وصل الطبيب، كان الظلام قد استبدّ بالكون، خلا بضع نجوم متمرّدة، وهواء بارد يشعر أن الشتاء على الأبواب، ونزل الطبيب فقام الناس بوجهه، وجلّهم يعرفه، وقالت عجوز لمجاورتها: «هذا هوّ الدكتور عْمَارّ؟».

أخرج الطبيب سمّاعته، ووضعها على قلب العجوز، ونظر إلى عينيه وقد طلب تقريب «اللوكس» منهما، وفحص فمه، ثمّ أخرج من حقيبته إبرةً، وطلب منهم أن يغلوا ماءً ليعقّمها، ثمّ أخرج محلولًا ومسحوقًا، مزجهما عن طريق الإبرة، ثمّ سحب المزيج ورفع الإبرة للهواء، حتى طار منها ماء، ثمّ حقن المريض، فبدت منه أنّةٌ خفيفة، ثمّ أعاد الحقنة إلى علبة معدنية، ووضعها في حقيبته، وقال: «الزّلمي تعبان كتير، راح أكتب لو على دوا جيبو الصبح».

هدأ جاسم العلي، هدأ تمامًا، وانتظمت أنفاسه، وشرب الطبيب شايه، ثمّ غادر، وغادر معه الجميع، محيّين العجوز بتحية واحدة «ما عليه الّا العافية» وكان الظلام قد سكب سواده الأليف، فلم يكن في السماء إلّا «النجمة واختها»..

في الصـــباح كانَ حمّادة الجاســـم في الطريق إلى المدرســـة، بعد تأكيد الشـــيّاب الذين عـادوا العجوز «غبشـــةً» : «أبوك ما بو شـــي، لا تضـــيّع مدرسـتك»، وفي الطريق كانت العجائز المسـتيقظات يناديـنه: «وال شـلون صـــار ابوك»، وكان القلق قد ســـكن في صـــدر الصـــغير، وقد التمّ حوله الأولاد، وأخبروا الأســـتاذ أنّ أبا حمادة مرض فجأة بالأمس، ونظر الجميع إلى بطلهم الصـغير بوصـفه يتيمًا مع وقف التنفيذ. وفي حصّـة الموسـيقا، طلـب المعلّم منهم أن يغنّوا، وغنّى الجميع رغبـةً منهم، وتحـت الإصـــرار والتهديد، إلّا حمّادة، وحين غنّى سلمان، أنصت الجميع:

«يـا فطيم كعّي الغنم* ريـت الغنم عيمـة | أبوچ عمّر گصـــر، فوك الگصر خيمة» وتبسّم بعض الأطفال، ثم أكمل سلمان: «يا ستاز اعطيني ازنْ* خطيبتي راحت | عدّت من هين العصـــر* ورياحها فاحت» وتحولت البسـمات المتقطّعة إلى ضـحك صـريح، تسـامح معه المعلّم، ثمّ ضـحك، وضحك حمّادة، وسـرعان ما كفكف ضحكته تحت تأنيب ضـمير مفاجئ وقد تذكّر أباه في الفراش.

[11]

عادت صبحة اليوسف من المركز وفي يدها كيس أدوية، وقارورة عصير البرتقال المركّز، ورمت «صايتها» وجلبت طاسة، وملعقة. كانت فاطم العلي أخت المريض تداري أخاها في غياب صبحة، ولكنّ طفلها الصغير الشقيّ لم يهدأ، وراح يعبث ويركض خارج الغرفة الصغيرة، ويقترب من خاله الممدّد، والأمّ الضجرة تنهر ولدها بعنف. وقالت لابن أخيها الصغير. «محمّاد، خذ حسين، وروحم العبُم، خلّي ابوك يرتاح».

كان يومًا مسترقًا من صيفٍ غابر، شمس تشرينية متمرّدة على قانون «الصّفري»، تأفّف منه الرجال الذين نزعوا «سواكيهم»[7] و«درّاعاتهم»[8]، ويضعونها على أكتافهم، في الدروب المتشعّبة نحو البرية في الشمال، أو الفرات في الجنوب، أو المركز في الغرب، باحثين عن بذار يكتالونه، أو ماشية يسوقونها، أو وراء طحنة على ظهر حمار، مشاةً، أو على ظهور دوابّهم، وقد تجد شابًّا يسوق «بسكليت»، أو رجلًا يقود جرّارًا فيقف لعابر راجلٍ، وقد يتحدثان عن الطقس، فيقول أحدهما: «هذا تمّوز ردّ من جديد». في حين تعبر سيارة على غير موعد بين قريتين، تحمل مريضًا، أو وجيهًا، أو صاحب حاجة في المركز، وقد يردّ الثاني: «ما شفت جاسم العلي ي ي ي ؟ شلونو اليوم؟» فيردّ المسؤول: «بينا روح وبي روح»، فيردّ السائل: «شايب چلا عُمْرو».

يعرف الدكتور عمر أن الهبوط الذي تعرّض له العجوز وسخونته كان من أعراض جلطة دماغية، وربّما لم تكن الأولى، ولكنّ عيادته الفقيرة غير

---

[7] - سواكي: جمع سوكاية: السترة (جاكيت)

[8] - الدرّاعة: سترة رجالية تراثية، تماثل الجاكيت، لكنّها مبطّنة بالفرو.

مزوّدة بما يكفل العناية اللازمة للعجوز، وأنّ جسده المتعب قد لا يحتمل كثيرًا، بسبب سوء تغذية مزمن، وتعب وإرهاق، ولعن الطبيب في سرّه الفقر، وأسبابه، متذكّرًا حياة أهله في حلب، وصراع أبيه مع اللقمة ليوفّر له تعليمًا يليق بذكائه.

حين مرّت الزوجة المسكينة به في الصباح الباكر، أعطاها بعض المقويّات، والإبر، وطلب منها أن تشتري له برتقالًا وتفّاحًا، وأدرك أنّهما ليسا في موسمهما، فأشار عليها أن تشتري شراب البرتقال، ومدّ يده إلى جيب بنطاله الفضفاض، وأخرج خمس ليرات، فدعت له المرأة.

في الليل يستعيد الخريف قسوته، ويعاقب الفقراء ببردٍ ناشف، ما يلبث أن يتصالح مع الغرف المحكمة بإغلاق، وقد توسّطها صاجٌ مقلوب، تتأجّج فيه جمرات حطب القطن، ما تكاد تهيج حين تقلّبها يد «الحبّابة» حتى تغفو.

وعلى ضوء اللمبة يصنع إبراهيم الشيخ يونس لإخوته الصغار ظلالًا تماثل رأس الذئب من يده المحكمة بأصابع متلاصقة، وحين يقرّب إخوته ظلال أياديهم، تهتزّ أذنا الذئب، أو فكّه فيحدث رعدة خوف عابرة في أجساد الأبرياء الصغار.

وكان جمعة السطام يداعب الصغيرة عليا وإخوتها الصغار، بنشيد عابث بعد أن يمدّوا أياديهم، جوار صاج الحطب: «گارة- گرميدة- رحلنا- نولنا- بدار(ن)- جديدة- عمّي- شويخ- لويخ- يدگش- إيدو- بالمدگاش»، وفي كلّ مرة، يكفّ صاحب اليد التي تقع عليها العبارة الأخيرة يده، إلى أن تظلّ اليد الأخيرة، فيغمض عينيه، ويتلقى ضربات خفيفة من أحد إخوته، عليه أن يعرف من هو.

كان جمعة مستغرقًا في فرح طفولي مع أولاده، نسي معه متاعب الحراثة، وقناع الذئب الذي يرتديه صباحًا، واستمتاعه بعبارات العتاب في ثياب المدح، كلّما اضطر للاعتذار عن تأخّره عن حراثة أرض، وضربه موعدًا جديدًا: «راعي المصلحة چذّاب»، فيضحك إن كان قائلها شايب في عمر أبيه، ولكنّه يحتدّ إن سمعها ممّن هو في عمره.

ولكنّ جمعة الآن طفل، يلعب بكلّ جدّية، وقد طلب من زوجته أن تضع چيدان الچاي فوق الجمريّة، وما كاد صوت الإبريق، يبين عن شرابٍ منتظر، حتى سمع أصوات لغطٍ من بعيد، بدا يعلو، وخرجت المرأة تستعلم قائلة: «الله يكفينا الشرّ»، وعادت بعد دقائق، مكفهرّة الوجه:

- عمّي جاسم العلي... مات.

[12]

كان الشيخ يسمع الراديو، متنقّلًا بين إذاعة لندن، وصوت أميركا، وصوت العرب، كان ريشتارد نيكسون هو الرئيس الأميركي الجديد، وقد فاز في الانتخابات قبل يومين، والأخبار تتحدث عن مهمّاته الصعبة في فيتنام والشرق الأوسط، والصراع على النفوذ مع السوفيات.

كان الشيخ وضيوفه يسمرون، ويسمعون بفضول برنامج «السياسة بين السائل والمجيب»، وجاء إبراهيم بالشاي في إبريق يتوسّط صينيّة «كاسات»، وأنزل الصينية على الأرض، ثمّ سكب الشاي في كؤوس فرنسيّة مضلّعة، محفوفة بأهلّة صغيرة، حين قابل الرجال رجل أميركا الجديد بزعيم الاتحاد السوفياتي ليونيد بريجنيف، فتهكّم سعيد الصالح وهو يتناول كاس الشاي من الصينية التي يدور بها الولد:

- شايبنا يطگّع شايبهم.

وضحك الرجال، وعلا الضحك، وسمع إبراهيم من خلال القهقهة، ردّ سالم الصطاف:

- عجل السالفة حصّاد؟ هذي سياسة، ونيكسون محامي، والمحامين شاطرين.

ولم يكد ذلك السامر ينفضّ، حتى سمع الجميع عويل النساء القريب، وخرجوا فازعين.

جاءت القرية عن بكرة أبيها، حتى الأطفال جاؤوا في أحضان أمهاتهم، جاؤوا بالفوانيس، ولُوكس الجمعة السطّام، ورأى الشيخ انتظار الصباح لغسل الرجل ودفنه، وأحضر بعض الملمّين بالقراءة مصاحف بدؤوا

يقرؤون فيها، حول الجثمان، وتعالى نحيب غير منتظم، وسكت الجمع فجأة يسمعون صبحة تروي ما حدث:

«الصبح فتّح عيونو، ما بي شي، شرِب دواه، وجا اسماعين العلي ضربو ابرة، وبعد شوح، نادى خميس وحمّادة، وگالِ لْهم: ديرم بالكم على خواتكم، ونام.. ظلّ نايم للمغرب، بعدين تْعبّ، العشا زاد عليه الألم، فزّعت عليه الجيران، وما طوّل، فتّح عيونو، ونام».

وارتفع عويل جديد، وصاحت أخته فاطمة «يا ابن أمّي»، وقال رجلٌ من السامرين في بيت الشيخ «ارتاح، الموت راحة»، ودعا الشيخ الجميع أن يترحّموا على الرجل بدل الهرج والبكاء، وهدأ الصوت، وارتفع شيئًا فشيئًا صوت قراءاتٍ لا تتقن التجويد، ولكنها تحمل خشوعًا صادقًا، وحزنًا كتيمًا، وخرج بعض الرجال يتدبّرون أمر الدفن، وبيت العزاء.

ودعا سالم الصطاف النساء أن يعدن بأطفالهنّ إلى البيوت و«الصباح رباح»، وخفّ الجمع، ولم يبق غير شابّ وحيد يقرأ «يس» و«تبارك» وقصار السور، وبضع نساء ينمن قليلًا، ويصحون فيرسلن بكاءً، ونام حمّادة بجانب الجثمان.

تقاطرت النساء من قرى الناحية، من البريّة والفرات. فقد أرسل سالم الصطاف من يخبر أهل البريّة، والزور، وأرسل إلى نساء العشيرة المتزوجات من غرباء في القرى القريبة. وعندما اتضح وجه الشمس في الشرق كان بحر من سواد يملأ حوش جاسم العلي، يكاد يودي ببيته المتهالك، تأتي زمرة منهنّ هادئات ساكنات وعلى باب الحوش تطلق إحداهنّ «نعّاوة» تثير في صاحباتها وفي السابقات همّة البكاء.

كان الشيخ في بيته، وقد صلّى ركعتي الضحى، وجرّ حبّات المسباح يقرأ ورد الضحى الأثير، ونظر إلى دفترٍ على الرفّ، فأخرجه وكتب مستعينًا

بورقة ′مفكّرة الصباح′ «اليوم الخميس 7 تشرين الثاني عام 1968، انتقل إلى رحمة الله جاسم العلي المحمد العثمان». وأغلق الدفتر، ثمّ مضى إلى بيت الفقيد.

«رحت عالبيت ومالگيتك* لگيت النّضد وغراض بيتك» وبكت النساء حين سمعن فاطم العلي، وساعدتها أخرى جاءت في الصباح «نامي عليهم طبك يا گاع* نامى على حلوين الطباع» وتملّكت نشوة البكاء جمع النسوة المكلومات الوالهات، وهن يعشن سواد الظلم والفقر والقهر، وبكين، واحتدم الإيقاع، وشقّت امرأة ثوبها. فصرخ رجلٌ عجوز:

- حرام، حراااااااااام. ابچن بعبرتچن، لا تعذبنّو بالكبر.

وهدأ البحر المائج، خلا مويجات خفيفة، بأصواتٍ مجروحة، تنظر بحزن إلى أطفالٍ صغار، وأمّ والهة.

وتدافع الشباب إلى الجثمان، فحملوه إلى المغسل الذي جهّزوه، ثمّ حملوه إلى المقبرة، فلحقته بناته الصغيرات: «وين رايح ومخلّينا يابااا»، وأعادهنّ العجوز الحكيم، بعيونٍ دامعة، منبّهًا أنّ هذا لا يجوز.

واستقرّ في عربةٍ صغيرة، يحفّونها، وازداد الجمع مع ارتفاع شمس الضحى، وجاء رجال آخرون من بيوت العزب، ومن القرى المجاورة، وقال سعيد الصالح لجاره في المسير:

- ما شالله ش صارت لو جنازة.

- ما شالله.. اليوم خميس، ونص شعبان، جاسم العلي من أهل الله، رجل فقير، ما زعّل حدا بحياتو.

وهزّ كثيرٌ من الرجال رؤوسهم، وتمنّى كثير منهم أن تكون له جنازة كهذه، وطلب منهم الشيخ كفّ الهرج، وذكر الله، وابتدأ يقول: «لا إله إلّا الله» فيردّد معه السائرون.

كان القبر جاهزًا، فأنزله الرجال بسرعة، ووقف الشيخ طالبًا من الجمع الجلوس لتلقين الميّت، ثم قرأ شيئًا من آيات القرآن الكريم، وخاطب المتوفّى: «يا جاسم، يا ابن هدلة، إذا جاءك الملَكَان الموكلان بك، وسألاك من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فقل لهما: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلّم نبيي، واستطرد الشيخ، والجمع مطرق، وكلّ منهم يمسك قبضة تراب، إلى أن فرغ الشيخ، وحثّ التراب على القبر، فتبعه الجميع، وقفلوا عائدين.

وفي ساحة غير بعيدة عن بيت المرحوم، كان بيت شعر مخومس، يمتدّ، وبضعة شباب يمدّون اللبابيد والبسط، ويهيئون المخادّ لعزاء طويل.

[13]

ونعّت سعدة الحمّادي، وفهم الجميع نعّاوتها، قبل أن تضيع في العويل: «لو(ن) البجي ينفع يحَرِفْ ظعون* لـ عَوِي عَوْي الذيب مطعون»، وردّت عليها فاطم العلي أخت المرحوم: «سيباطهم بالموح مبني* خالك ذبح.. هـ رْواح يا بني» وبكت النساء بحرقة، بكين فقد الأخ، وتذكّرت النساء من فقدن، فبكين ونعّين، وهاج بحر السواد المنتظم في الغرفة الصغيرة، واقترحت إحداهنّ أن يبنوا لهنّ بيتًا صغيرًا لأنّ الغرفة لا تكفي، ونهرتهنّ خاتون العلي المرأة الشابّة التي ختمت القرآن في غفلة عن عين العشيرة. كان ذلك قبل 10 سنين، وكانت صغيرة جدًّا، حين أقام شيخٌ عابر حلقة تحفيظ في بيتهم، ولم يجد الحاج علي غضاضة من تعليم ابنته، وقال في حزن: «باچر تگرا لي ختمة اذا متت». نهرتهنّ خاتون، فاستمعن إليها بعد نوبة نعاء مستفيضة، ففتحت خاتون مصحفها القديم الذي استوهبه لها والدها من حلب، من مكتبة في جبّ القبّة. وقرأت خاتون: «بسم الله الرحمن الرحيم، تبارك الذي بيده الملك وهو على شيءٍ قدير... » وأكملت بصوتٍ حزين هادئ، وكانت تحفظ هذه السورة، وتسير عيناها بين السطور مستأنسةً بها، وتذرف بهدوء دمعًا حنونًا، وساد جوّ من السكينة ذلك البحر الذي كان عالي الموج قبل قليل.

وكان الرجال قد أعدّوا للعزاء عدّته، وانتظروا القادمين من الشرق والغرب، فهذا ليس عزاء جاسم العلي وحسب، ولكنّه عزاء العشيرة كاملة، وسيأتي «المسايير» من كلّ حدب وصوب، سيأتون من قرى البريّة والزور ومن قرى الشاميّة، من مسكنة ودير حافر والكسرات، من كلّ من سبق أن سيّروا عليهم، وسيأتي أهل المصلحة أيضًا، سيأتي أصدقاء جمعة

السـطّام، والحاج حميدي، وسـيأتي زملاء المعلم، وإخوان الشـيخ. ولن تكفي الأيّام، وربّما امتدّ «العزا» إلى رمضان.

يتعلّم الشباب الصغار عبارات «العزا»، يدرّسها الكبار للصغار «يسلم الـدين والإيمـان«، وعنـدمـا يشـربون القهوة لا يقولون «دايمـة» بـل يسـتبدلون بها «بالافراح» أو «الله يرحمو»، وعندما يدار الطعام يجب أن يأكلوا بحسـاب، دون نهمٍ أو شـهية، فالعيون ترصـد مجتمعات «العزا» بحذر، وبرغبة في تصـيّد كلّ سـلوك خارج على النسـق، وسـيكون مائدةً لحديثٍ تالٍ.

وجاءت وفود المعزّين، جاءت ضحًى، وجاءت قبيل صلاة الظهر، وفود محمّلـة بـالخراف والماعز والنعـاج السـمينـة، وأكيـاس السّـكر والرزّ، يستقبلهم رجال القبيلة، ويأخذونهم إلى صدر المجلس، وفي بيت إسماعيل العلي المجاور، الذي أصبح مقرّ العمليات، كانت الخبّازات يشعلن الحطب تحت صـيجانٍ ثاوية، وكان الشـباب يذبحون وليمة اليوم، بعد أن يأخذوا التعليمات من سالم الصطاف: «اذبحم ثلاث.. ثلاث بكفاية» فيذهبون إلى «صـيرة الدّواب» ويختارون ضحايا اليوم الجديد. ويظلّ إسـماعيل العلي داعيًا للاختصـار: « اثنين بزيـادة.. خلّم لهـا اليتـامى چمّ نعجـة»، ولكنّ المفاجآت غير السّارّة تعطّل عمل المطبخ اليومي، حين يأتي مسيار جديد، والطعام على وشك الجاهزية، فيضطرون إلى ذبحٍ جديد.

وجاء رئيس المخفر رفقة ثلاثة من الشـرطة، جاء بسـيارة لاندروفر رصـاصـية، وتلقّاهم جمعة السـطام، فارتبك الحاضـرون قليلًا، ووقف الجميع، وجاء الأسـتاذ محمود رفقة زميلين له من مدرسـة قرية النايفة، فاختبأ الطلّاب، واختفوا فجأة، وظهرت ملامح الرعب على الأبناء والآباء، ولم يجد الحاجّ حميدي غير عايد يخدم الضـيوف، فسـاعده إسـماعيل

العلي، وأوصى الحاجّ رجلًا من القبيلة في ورشة الطعام أن يهتمّوا بطعام رئيس المخفر، و«الاستازيّة».

يحضر الشيخ فيحدّثهم عن الموت والحساب، عن الآخرة والجنّة والنار، وعن فرائض الوضوء، وأركان الصلاة، ويردّ على أسئلتهم، وتدور القهوة المرّة بطعمها اللاذع المرّ، يصبّها عايد باحترافية شديدة، وينتظر هزّة الفنجان كي ينتقل إلى اليمين، وفي الزاوية يحضّر الشباب الشاي والقهوة والأراكيل، وغير بعيد يقف أطفال صغار حفاة يراقبون المشهد بفضول ومهابة، فإذا انحسرت الشمس، وغادر المسيّرون، جلسوا هادئين، وقد تمتدّ أياديهم إلى القهوة المرّة، فيفزعون من طعمها، وقد يغافل أشقاهم أرگيلة في الزاوية فيشفط من خرطومها نفَسًا، ويطرب الأولاد لمرأى فقاعات الماء في حوض الزجاج، وصوت القرقرة، إلى أن يسمعوا صوت عايد القادم من بعيد: «ولاك».

وفي الليل يلتمّ الساهرون حول الجمريّة، وقد أسدل الشباب «الرواق»، وأشعل عايد «اللوكس»، وجاء شباب آخرون لم يكونوا يداومون مع القائمين على «العزا» يتقدّمهم أحمد الاسماعيل: «اليوم خلّصنا الختمة الثالثة»، فيتلقون عبارات الثناء من الجالسين، ويمدّ جمعة السطام يده إلى جيبه مانحًا ليرةً واحدة، لكلّ قارئ، فيستبشرون بالأعطية الثمينة، وينظر لهم الشباب والأولاد الحفاة وقد ظهرت عليهم الغيرة.

داوموا على القراءة أيّامًا وكان المتعلّمون من الرجال يغشون مجلس القراءة، وقد يوزّعون السور على الشباب، وقد يشاركونهم في قراءة سورة أو سورتين، ثمّ ينصرفون إلى «بيت العزا»، ويلحظون تفوّق طلاب الشيخ على طلّاب «الاستاز»، قليلي الخبرة، مع مطالع السور «ألم، ق، كهيعص..»

فيجد الكبار الذين حرّموا التدريس، فرصة للانتقام من «استازيّة» المستقبل.

حين أعطته عمشة الخلف ليرةً لم يصرفها إبراهيم الشيخ يونس. قالت له أمّه: «هاتها .. أغبّي لك ايّاها»، واليوم تنضمّ إلى ليرته تلك ليرة أخرى، وأدرك الفتي أن للعلم ثمرة، وها هو يذوقها، فمضى إلى كتبه، مستعينًا بضوء الفانوس الشحيح، يقرأ شيئًا يفهمه من دون الاستعانة بمدرّس، ولم يجد ما يقرأ غير نصوص دروس النحو، وليتمثّل شخوصها. ولكنّه تذكّر حمّادة، الولد اليتيم، فأخذ على نفسه أن يعلّمه، وأن يكون مدرّسه الصغير، ثمّ قام ودسّ الليرة الثانية تحت بساط السدو المثنيّ بعناية تحت «النضد».

وفي بيت «العزا» تداول الناس أخبار الدنيا مع المعزّين، أخبار فلسطين، وعبد الناصر، ونيكسون وبريجنيف، وأخبار القطن والفلاحة والمحلجة والفرات، وأسعار الغنم في «البيزار»، وأسعار السلف للموسم المقبل، والأيام الباقية لرمضان. وتبادلوا ضيافة التتن، دفعوا تجاه بعضهم العلب المعدنية المتخمة بالغازي ودخان القچق، ولفّوا السكارات بدفاتر الشام، وشربوا من الأراگيل التنبّاك المحضّر بعناية، وظهرت قدّاحة الرونسون المهيبة في يد جمعة السطام، وجاء عايد بالجمر من الجمرية ذاتها. وقبل أن يكفّ «العزا» جاء الحاجّ حميدي، وجلس جانب جمعة السطّام، وكلّمه بصوتٍ عالٍ ليسمع الجميع: «ليش نلوم العرب بسالفة فلسطين؟ احنا بيش اخير منهم؟ هذا الزلمة الـ مات باچر تفض الفضيضة، وكلّ واحد يروح بحال سبيلو، هذي المرة والعجّان شـ يسوّون؟». وأطرق جمعة، وغاب الذئب الذي كان في صدره، وغابت الثعالب أيضًا، وقال «خير ان شالله».

[14]

- صايم الّا مفطر؟
- صايم.
- افتح اثمَكْ، ومدّ لسانك تا.. شُوْفْ.

وفي دقائق قليلات عرف الطلّاب من هو الصائم، ومن هو المفطر، فوشوا بهم، وسمع المعلم وهو في غرفته أسماء من أفطروا، وقد سمّوهم علنًا، وسمع المفطرين يردّون بحزم: «الفاسود چلب اهود»، فابتسم.. ثمّ ضحك.

وتزيد الجلبة والضوضاء قبل أن يقرع العريف جرس الصباح، ويتقدّم الأستاذ الصفوف المتوجّسة، وقد جاء وقت التفتيش على النظافة، ومدّ الأيادي التي تمشّقت من برد الخريف الناشف، و لا تلبث الصفوف أن تدخل في هدوء غرفتين متجاورتين، تجمّع فيها أطفال القرية، أمام مستطيل خشب أسود، وتهدأ الساحة التي كانت قبل قليل مسرحًا للصراخ والجلبة.

يهيمن سكون صباحي في اليوم الأول من رمضان، لولا قافلة الوِرد، وقد اتّجهت «العِزبات نحو الجنوب، على ظهور الحمير المحمّلة ببراميل الماء الصغيرة، «يهيّرن»[9] بعضهنّ، كلّما مررن ببيت، وما إن تتكامل القافلة حتّى يذهبن في «حديث الورّادات»، وقد تداولن أحاديث القرية، أمواتها وأحيائها، وشبابها وبناتها، وأخبار العشق والزواج، فموسم القطن على الأبواب. وفي الطريق الممتدّ نحو ساعة تكون القافلة قد استوفت

9 - يهيّرنهنّ: يدعونهنّ

الأحاديث، وقد يغنّين إن خلا الطريق من عابرٍ أو راعٍ قريب، شيئًا من الـ«نايل» أو «السويحلي»، وقد يؤدّين أغنية جماعية يطربن لها، ولكنّ الصيام يحكم الجميع بمهابته، فقد خلا الجوّ تقريبًا من العابرين، خلا رعاةٍ شباب يشعلون «الطرطيع» اليابس، وقد تاهت دوابّهم في الأرض المفلوحة.

خلال خمسة عشر يومًا، سكتت أصوات المسجّلات و«الروادي»، وابتعدت النساء عن الرجال.

هدّ الشباب «بيت العزا»، وطووه بهدوء، تحت الأعمدة، والأوتاد، والحبال، ووضعوا فوقه الأروقة، وتذكّر سالم الصطّاف أيّام الرحيل والنزيل، وتحسّر، ومدّ يده إلى «صفط التتن» وتذكّر أنّه صائم. وقبل اكتمال هدّ البيت، كان الحاجّ حميدي وجمعة السطّام ينسلّان من المشهد بهدوء، ويمضيان إلى بيت المرحوم.

لم تنم صبحة اليوسف بعد السحور، ظلّت في حديثٍ مع قريبةٍ لها جاءت من الشاميّة، وكانت قد علمت متأخّرةً بوفاة ابن عمّتها، وفي الصباح انضمّت إليهما أخت المرحوم وأمّ عناد وعمشة الخلف. وبدأ شعور بالقلق ينتاب الأرملة الجديدة، شعور بأنّ هذا الحشد سوف ينفضّ بعد قليل، بعد يوم أو يومين، ما دام «بيت العزا» قد انهدّ، وحين أقبل الحاجّ حميدي، رفقة الشيخ، وجمعة الجاسم، كان القلق قد ملأ صدرها بهواء خانق.

- يا أمّ خميس، الموت حگّ، وأبو خميس فجيدة، بسّ الحيّ أبدى من الميّت، وانتِ أخت رجال، وعندچ ويلاد زغار. وسكت الحاج، يريد الوصول إلى الفكرة التالية، فتدارك جمعة الموقف، وأكمل:

- احنا بعون الله أهلچ، واخوتچ، وأكثر الـــ حواليچ چانم يتامى، وصـــدرَمْ. البارح فلحنا الگاع من جديد، وبذرناها بالتراكتور، واليوم جينا نسلمچ الحلال الـ ظلّ من المسيار، وباقي التعازي.

- ظلّ لْكمْ 6 نعجات، وچيسين رزّ، و3 چياس سكّر.

وكادت أن تفتح فاها دهشـةً لهذا ، لكنها اسـتدركت، ولجمت دهشـتها، قـائلـةً: «عـامود بيتي راح.. مـارح يرجعو حلال الـدنيـا» وذرفـت دمعـةً، ثمّ بكت، وتدراك الحاجّ الموقف:

- الله يرحمو، احنـا نعرفچ سـبعـة.. لا لا لا.. وگـت البچي راح، وأطرقت أمّ خميس تهمس لنفسها أنّ «وگت البچي بلّش». وأكملت النسـوة ما وقف عنده الرجلان، بعبارات التشـجيع والعتـاب، فسـكتت المرأة، وانتظر الجميع كلمات الشـيخ التي حدّثها عن واجب المرحوم عليها في الالتزام بالعدّة، والدعاء له، وتربية الأولاد تربية صالحة.

لم يشـهد دكّان الحاجّ علي ازدحامًا كما شـهد اليوم، لم تسـع الفسحة الصـغيرة زبائنه، فجلسـوا أمام الدكّان على كراسـي صـغيرة لا تكاد تسـمح للجـالس أن يثني ركبتـه. وجـاء غربـاء من خـارج القريـة يبحثون عن التمر والتين وعلب السردين.

وكان الحاجّ قد جلب من مركز الناحية خصـــفة من تمر عراقي قديم، وتينًـا مجفّفًـا في كرتونـات صـــغيرة، وطيّـات قمر الـدين مغلّفـة بنـايلون شـفّاف، ولم يخل الأمر من رفاهية عالية إذ جلب صـندوقي تفّاح وبرتقال، يطلبهما العابرون الغرباء، أو ذوو المرضـى الميســورون. ونظر إســماعيل العلي إلى الصندوق، وقال:

- حجّي بيش المردقان؟
- ثمانين جرش الكيلو

وأطرق إسماعيل قليلًا، وقال:

- اعطيني طيّة گمر الدين، وسجّلها ع الدفتر، ومدّ الحاجّ يده إلى دفترٍ سميك مسطّر بخطوط ملونة متشابكة، ثمّ أخذ قلم الرصاص من سحّاب الغلّة، وفتح الدفتر على صفحة إسماعيل العلي، وكتب:

طيّة كمر الدين 21 تشرين الثاني. وسجّل السعر في أقصى اليمين.

كان دفتر الدكّان طريقة الحاجّ الأهمّ لتنشيط حركة الدكّان المحاط بزبائن قليلي الحيلة، تمرّ بهم «المصاري» مرّة أو مرّتين في العام. وكان الحاجّ يديّن من يقدّر أنهم يستطيعون الوفاء، أو يتوسّم فيهم الرغبة في الوفاء، أو لأمر طارئ، منتظرًا موسم الحنطة أو القطن أو بيع الصوف والسمن في الربيع، ولا يعدم الحاجّ طريقة لاستيفاء دينه، ولكنّه يقع في الفخّ من حينٍ إلى آخر، وقد علّمته تجاربه تلك ألّا يزيد مبلغ الدين للـ«ـبُطليّة»[10] مهما «ترضّعه»[11] الدائن وسوّف له. بعدما استدان منه أحدهم موادّ و«مصاري» وقد استوفاه موسمًا بعد موسم، فماطله، وأدرك الحاجّ أن «المصاري راحت»، ولكنّ الرجل احتاج، فجاء الحاجّ متضرّعًا:

- دينّي مِيتْ ورگة، وانشالله أوفّيك الاوّلي والتالي.
- ابن اخوي «مصاريّي ماتن، الحّگهنْ بچفَنْ؟».

[10] - البُطلية: الذين لاينوون سداد الدين

[11] - يترضّع: مقلوب يتضرع: يستعطف

وفي الـــ «عصير الزغيرة»، تكون النساء قد قرّرن ماذا يطبخن اليوم؛ ويكون الأولاد قد عادوا من المدرسة محمّلين بالأحاديث والتعب و«الوظائف»، فتشجعهم الأمّهات على إكمال الصيام، والظفر بإفطارية من الدكان، بعض حبّات من التمر والتين، ويكون صاج النار قد جهّز ليكون مجمرة في الليل ليكون للإفطار طعمٌ آخر.

عَصَر إسماعيل العلي بيده نصف طيّة قمر الدين، وسكب الماء فوق الصفحة البرتقاليّة الناشفة، وانتظر قليلًا، ثم مرسها بيده، شيئًا فشيئًا، ثم سكب ماءً أكثر، وملأ قمر الدين السائل «جدريّةً» صغيرة.

ولحق الحاجّ علي الشيخ إلى المسجد قبل الغروب، وقد هدأت أسراب الكراكي إلى الجنوب، وكأنها صائمة هذا اليوم، فهزّ الحاج رأسه، ومضى وفي يده كيس صغير فيه حبّات تمر وتين جاء بها من الدكّان، وفي الطريق المتكسّر بين البيوت وصلت روائح الزيوت المحترقة بالبصل، تنضج البرغل والكشك وشوربة العدس. وفاجأته وضحة السماعين تقدّم له طاسة كبيرة من لبن رائب، صنعته اليوم من حليب يومين، وقبل أن يصل باب المسجد، انتبه الحاجّ إلى وضحة: «عمّي.. شوية لبن، ادعونّا».

كانت صبحة اليوسف حائرة في طبخة اليوم، وامتدّت يدها إلى چوالة البرغل، فأخرجت منها حفنتين صغيرتين، نسّفتهما في الهواء قليلًا، وارسلت خميس يجلب لهم إفطاريّة من الدكّان، فجاء بكرتونة تين وببيض العصفور، وفرح الصغار وقد استطاعوا أن يصمدوا في صيام اليوم الأوّل نيابة عن أبيهم، كما شجّعتهم أمّهم. وقبل أن تضع البرغل في الصحن كي تضع عليه الإدام، كان أولادٌ صغار يتوافدون إليهم بصحون صغيرة، من أطعمة مختلفة، وكلّ منهم يقول: «هاي طُعمة».

وانتظرت العطشـانة أذان المغرب، كما لم تنتظره من قبل، ومع الأذان سمع الجميع صوتًا: «يا عروووووووووووووووووووب الذيب»!.

[15]

ليس وقت ذئاب؛ فالوحوش تغشى القرية شتاءً في الليالي الحالكة، وهذا ما فاجأ أهل العطشانة، في ذلك السهل المنبسط بين وادي الفرات، وتلاع البرية، ولم تكن ذبالة المساء قد خمدت بعد. وشاهد جمعة السطام جمعًا من الرعاة والرجال، وأخرج شابّ غرّ مسدّسًا صغيرًا وأطلق من مسافةٍ بعيدة على الذئب المحاط بكلاب القرية. وصرخ به جمعة:

- لا تصوّب حدا، عجل منتم شايفينو مرخي اذانو ويسحل بذيلو، ويعَرِج، هذا ذيب هرِمْ، أو مرضان وجايو الموت، من وين جا؟
- من هچذ.. قال أحد الرعاة، واشار بيده إلى البريّة.
- هذا أكيد اليدوْرون ع العنتيكة، انهزم منهم.

كانت جماعات الباحثين عن الآثار تظهر في التلاع القريبة، وقد أخذ الفضول أهل القرية بالسؤال عمّا يفعلون، ودارت أحاديث عن جرار فخّار، وبيوت على حالها، وعن ذهب كثير، تحرسه الحيّات، وكهول أجانب في التلال يساعدهم شباب من القرى، وبات من المألوف رؤية التلاع السمراء مكتحلة ببياض الحوّار على مرمى البصر.

- خلّو لي ياه، أريد جلدو

ترك الجمع الذئب الهزيل لسالم الصطاف، الذي أطلق النار عليه، ثمّ سحله إلى بيته، وانصرف الحاضرون إلى بيوتهم، وقد انمحى الشفق، وتفقّد الرعاة أغنامهم تحسّبًا وخوفًا، وتمسّك الأطفال بآبائهم وإخوتهم، خوفًا من الجنّ والذئاب، وطمأنهم الشيخ:

- في رمضان تصفّد الشياطين.

وأعادت حكايات العنتيكة ما يقال عن السدّ الذي سيبنى قريبًا، ويغمر الوادي بالماء، ودبّ قلقٌ مع كاسات الشاي، وقال الشيخ: لازم نشغّل الراديو، ونعرف أخبار الدنيا، فجاء إبراهيم بالراديو من صندوق أمّه الخشبي، وأدار الشيخ الموجة نحو إذاعة دمشق ثمّ القاهرة، المشغولتين ببرامج رمضان التي شاركت برامج السياسة المستفيضة.

أراد سالم أن يحتفظ بالجلد لعلّ زوجته تشفى من عقمها، فقد وصفوا له جلد الذئب، ولكنّه تكاسل عن صيده في الشتاء الماضي. تمرّ الذئاب في الشتاءات الباردة الناشفة من البراري باتجاه الفرات، تتجسّس طرائدها الثاوية في القرى الآمنة، حيث الدواب السمينة. وعلى الرغم من احتراز الأهالي، وتحسّبهم، إلّا أنّ الجوع يأخذ الذئاب إلى طرائدها الممكنة، ولا يخلو عام من ضحايا.

كان كانون الأوّل يتقدّم بسرعة، وقد انشغل الناس برمضان، بصيامه وطعامه والتروايح والسحور، وفي المدرسة خفّ العقاب، وفي الأيّام الأخيرة قلّ عدد المفطرين، وتشجّع طلاب الصف الأوّل على الصيام. وفي المساء كان الكبار منهم يتسلّون بصيد العصافير الهاربة إلى تحت سقوف البيوت، بـ«ـمجاليع» صنعوها على عجل من بقايا إطارات البسكليتات، وقد تعهدها خبير في القرية، بصناعة زاوية من خشب (جازول) تعصب رأسها بالمطاط، وتلتقيان في «كفّة» لا تكاد تحتضن حجرة في حجم بيضة عصفور.

غير أن الصيد الأوفر ذاك الذي تقدّمه فخاج الحاج علي، الذي يعطيها لشباب القرية، فينصبونها في الحقول المفلوحة، في انتظار عصفورٍ جائع، أو صعوةٍ متعبة، وعند الغروب يغشون دكّانه من جديد،

فيقاسمونه صيد اليوم، وقد يبيعونه حصّتهم بعلبة سردين، أو قبضة زبيب، أو إفطارية تين.

كان الحاج يسمع نشرة أخبار العاشرة، حين دقّ بابه طفلان يريدان الشراء:

- عمّي بدنا ثلاث كيلوات تفّاح وثلاث كيلوات مردقان

واندهش الحاجّ، وقال لهم:

- مين دزّكم؟
- عمّي صلّال.

وفهم الحاجّ السالفة، فالشباب يلعبون الصينيّة، ينقسمون إلى فريقين، يتراهنون على ديك دجاج، أو فواكه، أو مشبّك، وقد يقتسمون «السهريّة» جميعًا، يأخذون خاتمًا من إصبع أنثى أو عجوز، ويرمون جواربهم، ثمّ يضعون الخاتم في جوربٍ ما، وقد كوّروها جميعًا بالطريقة ذاتها، ثمّ وضعوها في صينيّة الكاسات وكأنّها ضيافة، وتكون فراسة الفريق الثاني في اكتشاف أي الجوارب اختفى فيها الخاتم.

- وين يتعلّلون.
- ببيتنا، قال ياسين الحمّود.

فهزّ الشيخ رأسه، وهو يضع الفاكهة في كيسي قرطاس، وقال:

- لاحكّكُم.

وأغلق الحاجّ دكانه، ووضع المفاتيح في جيبه، واتجه صوب بيت حمّود الياسين، وكانت نسائم شماليّة تلفح وجهه بقوّة، فشدّ «محرمته» على رأسه.

وامتلأ دفتر حمّادي الجاسم بالوظائف، التي قد يكتبها عنه إبراهيم الشيخ يونس، وأتقن الولد رسم الحروف، وعرف معنى الجمع، وقال له

إبراهيم أن الواحد بالإنكليزية تعني (ونّ)، وعرف الجهات، وحفظ الفاتحة وقرأ لأخوته في البيت، سورة المسد، فهزّت أمّه رأسها، وقد تعزّت بنجابة الولد عن مرارة الفقد، وفي المساء دفعت إليها زوجة جمعة السطام كيسًا صغيرًا من الحنطة، بعد أن ألقت تحية المساء: «خيتي هاي فطرتنا».

- خذوني عالسرايا وصوج مالي* ورجال تگابل الحكّام مالي

ارتدى إسماعيل العلي محرمته وعقاله، ووقف يريد الذهاب، فقد استدعته الشرطة بالأمس، بعد شكوى على أرض، مع جيرانهم من النايفة، وشدّت أم عناد من أزره:

- خلّيك سبع، الگاع گاعتك.. لا تخاف.

- احنا نمشي حفيانين بأرض كلّها شوك يا خيتي.

اشترى إسماعيل أرضًا صغيرة مجاورة من صبحي السليمان، من قرية النايفة، كان هذا قبل سنين، لا سند، ولا عقد، ولا شهود. ثمّ مات صبحي العام الفائت، وبعد شهر تقريبًا، جاءه شابّ يدعوه إلى ترك الأرض. كان عليان الابن الأكبر للمتوفّي وقد أكمل الابتدائية، وعمل مراقبًا عند الدولة، فتعرّف إلى الموظّفين ورجال المخفر، وعرف أنّ البيع من دون عقد لا قيمة له. وفي الطريق إلى الناحية تذكّر إسماعيل الذئب الكهل، وأحسّ بالرصاصات التي تلقّاها، كما أنّها قد صوّبت إليه، فشدّ درّاعته إلى أضلاعه، ومضى ينتظر سيارة أو تراكتورًا متّجهًا إلى الناحية.

[16]

چيل حنطة

چيل شعير

بيش تعبّي

بالزنبيل

تبادل الأولاد الكبار حمل بعضهم، بمرح، ونسوا أنهم في مدرسة، وأنّ جرس الحصة التالية سيستيقظ بعد قليل، ولكنّ الأيّام الأخيرة للصيام، واقتراب العطلة، رفع منسوب السعادة في الأجساد الصغيرة. وفي الصفّ كان المعلّم الجديد يملأ دفتر التفقّد، وقد وضع نقاطًا عند أسماء التلاميذ الذين لم يحضروا، من البيوت البعيدة خارج القرية منتظرًا أسباب غيابهم.

- هدول غيابْن كتير.
- أكيد يساعدو أهلُن بشي شغلي.

قال محمود البيطار، وهو يفكّر في أن يسافر إلى الرقّة ليقضي الإجازة مع زميله وصديقه هاني السعدي المدرّس في مدينة الرقّة، وفكّر أن يسافر إلى أهله ولكنّ العطلة قصيرة، وسيقضي نصفها على الطريق. ونظر إلى ساعته، وأدرك أن وقت الحصّة قد حان قبل دقائق، فنادى العريف:

- حَسَاااان، تعا دقّ الجرس.

*

- ليش عم تفلح أرض ما هي أرضك؟
- يا سيدي أرضي، شلون، اشتريتها من ثمان سنين.
- وشو يسبت إنّك اشتريتها.

- شلون ويش يسْبت؟ كلّ الناس تشهد انّي اشتريتها بذهب احمَر.
- عم تعيّب عليّ ولا؟
- معاذ الله يا سيدي.
- لا عم تعيّب عليّ.

وأدرك إسماعيل العلي أنّ ما ظنّه صحيح، فالشابّ اتفق مع الشرطة، وموظفي الزراعة، ولم يبق غير تبليغه.

- شوف هالمرّة راح اعدّيها، بس قسمًا عظمًا.
- يا سيدنا هذي أرضي.
- عندك عقد؟
- لا والله، الرجل ينگضب من لسانو.
- عندك عقد؟
- لا والله.
- يا ابني، انتي عم تستسمر أرض ما ني أرضك، اتروك بالحُسنى، أحسن ما حطّك بالسجن
- يا سيدي هذي أرضي.
- ولاك.. أنا بربّيك، يا شرطي، تعال حطّو بالنزارة.

في تلك الليلة القمراء، رفس خروف ابن شهرين، وأدرك سطّام أنّ الخروف سيموت، فاستلّ خنجره، وذبحه، بعد أن سمّى عليه. قال له معزّبه البدويّ: «إن شفت الدابّة راح تموت اذبحها»، كان القطيع بعيدًا عن البيوت، فسلخ جلد الخروف، وأشعل نارًا، وشواه قطعة قطعة. لم يأكل سطّام لحمًا ألذّ من لحم ذاك الخروف، وهو ابن العشرين، وقد أمضى أربع سنوات عند البدو، وفي كلّ سنة يعطيه المعزّب عشرة خراف، ينتقيها سطّام بنفسه، ويقول له:

- حلالك يسرح مع حلالي

*

- يا حجّي افطر، الله مرخّص لك.
- له يا امّ جمعة، بعد ها العمر أفطر.

ولم يكن غضب سطّام من عجوزه لأنها دعته إلى الإفطار، وكأنّه طفل صغير، بل لأنها قطعت عليه صور تلك الليلة.

قضى الحاج سطّام أحلى سني حياته في برارٍ بعيدة، وبين مضارب البدو، وقد أتقن لهجتهم، واقترب أن يماثلهم، وآخى أبناء معزّبه، وقاد النعاج في المراح، وصفّها لتحلبها النساء، وجزّ صوفها في الربيع، ورقص رقصة البدو في الأعراس. عشر سنين بالتمام والكمال، بحفنتين من ليرات الذهب. وتذكّر حكاية فاضل العبد الله، البدويّ الذي تركه أهله بعد مرضه، وقد أدركه الغجر، وعالجوه، ثمّ شفي، وعمل خادمًا عند شيخ قبيلة، فلاعبه المنقلة وغلبه.

- حجّي، وين صرت؟
- جيبي لي المنگلة.

وصفقت العجوز يدها، ولكنّها قامت إلى النضد، وأخرجت خشبة مثقّبة بحفر منتظمة، وأخرجت معها صرّة صغيرة، ووضعتها أمام العجوز الكهل، وعجبت من نشاطه المفاجئ. وأخذ سطّام الحجارة وسمع صليلها في يديه، فأطربه ذلك، وهو ينظر إلى الباب، وقد انسحب النهار إلى حيّز متداخل الألوان، وقال لزوجته:

- العلم عند الله.. العيد إذا ما هو باچر، بعد باچر.

وملأ الباب جسم امرأة والهة، لم تستأذن، ولم ترمِ السلام.

- عمّي.. وين جمعة.
- طلع من الصبح، عسى ما شرّ.
- اسماعين.. اسماعين انحبس اليوم.

*

- يا قاري يا دبٌّ.. أي سورة ما فيها ابٌّ.

وضحك إبراهيم وحمّادة، من مزاح الشيخ، واستوفى إبراهيم محفوظاته، وقال سالم الصطاف: إنا اعطيناك الكوثر،

فأحبطهم الشيخ: إنّ شانئك هو الأبتر، فيها باء.

- قل هو الله أحد.
- ما شاء الله عليك يا حمّادة.. ومدّ سالم يده إلى جيبه، وأخرج قطعتين نحاسيتين:
- هاكم اشترم، كلّ واحد، لوَّ فرنگين
- احنا صايمين.
- اشترم واكلم بعد الفطور.

وقام الوالدان مستعجلَين الدّكان، قبل أن يغلقه الحاجّ علي قبيل الفطور. وخفّ الرجلان إلى المسجد، ووقفا أمام المسجد، يعشّيان ساعتيهما، وينتظران كتيبة الشيّاب، ولحقهما جمعة السطّام، فاستغربا مجيئه، ولكنّه فسّر تعجّب الواقفين:

- إسماعين العلي.. اسماعين انحبس اليوم، بسبب گاعة صبحي، ويلاد صبحي مشتكين علي.
- يا عيبة العيبة.

وأدرك الجميع أذان الشــيخ، فتبادلوا إفطارية التمر والتين، وشــربوا الماء.

[17]

كان ذلك قبل ثماني سـنوات بالضـبط، وقد أثّرت موجة القحط في الناس. باع الناس مواشـيهم بثمن بخس، لعدم وجود العلف. في ذلك الصباح الرمادي، كانت غيوم بعيدة، تؤمّل الناس في المطر، وكان إسماعيل جالسًا يلفّ سيكارة بهدوء، وسمع الصوت:

- عرووووووب
- تفضّل هلا ابو عليّان تفضّل يا حيّ الله

جلس الرجلان، ووضع إسماعيل مخدّة وراء ظهر مضيفه، ومخدّتين بينهما.

- چاي يا امّ محمد.

وضع صبحي باكورته أمامه، وتنهّد مفرغًا من صدره تعب الطريق، وكان غريبًا أن يأتي صبحي السلمان قرية العطشانة، واستبشر إسماعيل بضيفه، فلفّ له سيكارة، وجاء الشاي، وشربا، وتحدّثا في القحط والفاقة والغيوم. ومع كاس الشاي الثالثة عرض عليه الضيف أن يبيعه قطعة الأرض الصغيرة، لأنه جار، وأحق بها، وهو محتاج إلى المال، ليتعالج في حلب.

- إسماعيل.. أنت يا إسماعيل العلي.
- نعم..
- تعال خود ميّ وتمر منشان تفطر، حلّ الفطور
- كثّر خيركم.

عاد الشرطيّ، وجرع إسماعيل شيئًا من الماء، ودمعت عينه، ولكنّه تجلّد، ووضع حبّة تمر في فمه:

- صمنا لوجه الله وأفطرنا على ما قسم الله.

سـرّ إسـماعيل بعرض جاره، ولكنّه تحفّظ في إبداء شـعوره، وفكّر في مصـدر المال، وقد هبطت أسـعار الماشـية، ولم يجد غير اسـتدانة ذهب امرأته، وكان ذلك شاقًّا.

- تعال خود فطور.. حظك من السما

كان أحد المراجعين صباحًا قد أنهى مراجعته بعد تعب، فوعد الشرطة بعشـاء، وكان ما وعد، أربع دجاجات فوق صـحن كبير من الثريد. طعام فائض عن حاجة أربعة عناصر، بعدما سافر اثنان منهم في إجازة العيد.

- باچر عيد؟
- الراديو ﮔالم باچر عيد.
- جيبوا لْنا الذبايح.

أشعل دحّام اللوكس، وأحضر أدوات الذبح والتقطيع، ونادى الفتيان:

- هاكم، ودّم الذبايح ع القاووش، آني لاحجكم... وين سالم؟
- راح مع جمعة السطام وحج حميدي والشيخ ع النايفة تا يفكّون عمّي إسماعيل من الحبس.
- ابن صبحي، ما بدّو حدا يكبّر راسو، ما بدو غير مطرﮔ خيزران.
- همّ رايحين على مختار النايفة، ويروحون كلهم ع الناحية.

كان عبد السـليم قد ورث عن أبيه صـناعة العيد، منذ سـكنوا العطشانة، بعدما استقرّوا على كتف الفرات، وتركوا الرحيل، وكان سليم المصـلح رجلًا صـالحًا، كثير الماشـية، فآثر أن يصـنع العيد، واعتاد أهل

العطشـانة أن يكون فطور العيد في بيت سـليم، فيذبح نعجتين أو ثلاث أو أكثر، فورث عنه ابنه عبد صناعة العيد.

- هذي النعجة عشرة ما هي حايل.
- شـــ مدريك بحالك؟ هذي حايل سـمينة، ومن سِـمِنْها تحسّـبها عشرة.
- الْحَز نشوف.

وضع الشـباب الذبيحة على مشمّع سميك، بعدما تصفّى دمها تمامًا، وبدأ خميس يسلخ جلدها، منافسًا شابًّا آخر في سلخ النعجة الثانية.

- ها شُگّ بطنها تا.. نشوف.
- عشرة
- مين الـ شـ مدرّي بحالو؟
- يالله يالله.. تا نگطّع، باچر اخلّي لك الچّبْدة.

وضـعف ضـوء اللوكس، وتثاءب عايد، وتثاءب شـابّان آخران، فحرّك دحّام دائرة حمراء في خاصــرة اللوكس، مرّتين، فعاد الضــوء، وجاءهم خميس بصــاج فيه جمر، ودبّت الحماســة في الشــباب، وقد أقبل العيد، وجاء دحّام بإبريق شــاي وضـعه على النار، وتبادل السـاهرون السـكاكين المشحوذة والجدّوم، ووضعوا اللحم المقطّع في قدرٍ كبير.

- عروووووووووووب.
- الله حيّو.. هلا سالم.. بشّر.
- الحمد لله.. إسماعيل جا معانا!!

صرّت صبحة اليوسـف كيس السكاكر الصغير، وأخذت معها أولادها إلى المقبرة، وجاء إبراهيم مع حمّادة، ومع الفجر وصلوا، وقرأ إبراهيم قبيل

الشروق، سورًا قصيرة، وشاركه حمّادة في قراءة «المسد، والفلق، والناس، والكوثر». وبكت النســاء، ونثرن الســكاكر فوق القبور، وتســارع إليها الأطفال. وسمع الجميع أصوات التكبير تصلهم من مكبّر الصوت، فدعا رجل عجوز النساء الثاكلات إلى العودة.

- عيدكم مبارك.
- أبرك العياد علينا وعليك.

كانت الأمّهات يعلّمن أولادهنّ الصــغار، عبارات المعايدة، وأحاطت بالبيوت الفقيرة جماعات من الفتيات والشــباب والأطفال، وخرج الرجال من الجامع متّجهين إلى بيت عبد الســليم، وطلب عايد من ابن الحاج علي أن يصــرف له خمس ليرات إلى فرنكات، فتجمّع في يده قبضــة كبيرة، ثمّ نادى الأولاد الذين جاؤوا ليشــتروا بعيدياتهم، ثمّ نثر الفرنكات النحاسية فتدافع الأولاد نحو الثروة المفاجئة، ثمّ انصرف الجميع إلى العبد السليم يلحقون بفطور العيد، بعد أن يأكل الرجال، ويعود إلى دحام العبد، الذي يعيد ترتيب الصحون المشــوّهة بخبزٍ وإدام وبقايا لحم، ويجلســون الأولاد في حلقات، ثمّ يضعون الصحون.

- إبراهيم.. إبراهيم الشيخ
- ها
- هـ رواحْ .. حبابتي عمشة تصيح لّكْ.
- شـ بي
- مكتوب من مصطفى.

[18]

«بسم الله الرحمن الرحيم

الوالد العزيز

تحية عربيّة، وأشـــواق قلبية، تهدي وتروح إلى عزيز القلب والروح، روح وريحان وجنة النعمان. عيدكم مبارك، وأهدي السـلام إلى أمّي الغالية، وإلى إخوتي الأعزاء، والأهل والأقارب والجيران.

أنا الحمد لله بخير، ولا ينقصـني غير رضـاكم عليّ، وعملي ما زال في بيروت، وأجرتي تحسّـنت. وقد أرسـلت لكم هدايا مع حامل الرسـالة ابن العمّ عبود البرهو مشكورًا.

ألف حمل سلام لكلّ أهل القرية».

تنهّدت عمشة الخلف، وانبسطت أساريرها، ونظرت إلى كيس النايلون الكبير. وملأت يدها بسـكّر ملفوف بأوراق قصـدير ملوّنة مكتوب عليها "ناشد إخوان" ووضعتها في يد إبراهيم. وأرادت أن يقرأ لها ثانية، لولا نداء نساء قادمات من بعيد:

- أمّ مصطفى ى ى ى
- تعالن.. حيّاچن الله.
- عيدچ مبارك.
- أبرك العياد علينا وعليچ

وقامت أم مصـطفى إلى النسـاء وتبادلن القبل، وجلسـن، وذرفت أمّ مصطفى، وبادلتها المعايدات نظرة مشجّعة على الاسترسال في البكاء، لولا أم عناد:

- سيرتو بين العربان، ولا نومتو جوّا التُّربان.

- الحمد لله يا خيتي.

وكان إبراهيم وصحبه قد تركوا المكان، حاملين غنيمة قراءة المكتوب، يبحثون عن أترابهم في القرية، فوجدوا عددًا منهم في ذروة جدار بيت، يلعبون الگلال، فيثبتون كراتٍ زجاجية اشتروها للتوّ من دكّان الحاج عليّ، ثمّ يسدّدون إليها بكراتٍ أخرى. ولم يكن إبراهيم مجيدًا لهذه اللعبة؛ فكلّما اقتنى شيئًا منها وأراد اللعب، أنّبه والده الشيخ، وبقي في نفسه محبّة تلك اللعبة.

يضع الأولاد مجموعة من تلك الكرات الزجاجية الملوّنة في مثلث، في رأس كلّ زاوية، وفي منتصف الضلع، وفي قلب المثلث، وعلى اللاعب أن يصيب الكلّ، فإن لامست كرته كرتين معًا، فإنّه سوف يخسر:

- چرچق موت.

وكانت الغيوم قد منحت الفضاء سقفًا حنونًا دافئًا، استأنس به الأولاد، والعابرون، ومنح المعايدين شيئًا من البهجة، وهم يتأمّلون موسمًا جيّدًا، وبدأت تمطر، قطراتٍ خفيفة، فقال زعيم اللاعبين:

- خلاص، هـ رواحم ..الدنيا گامت تمطر.

كان عبّود قد وصل القرية ضحى العيد، فأرسل رسالة مصطفى والأغراض إلى بيت الحاج حميدي. بعد صلاة العصر، زاره الحاجّ معايدًا، ومهنّئًا بالعودة، وفي زحمة المجلس، لم يتح له أن يسأل عن مصطفى إلّا أسئلة عامّة:

- شلونو؟.. انشالله انّو زين؟.. شلون شغلو؟

حين وصـل مصـطفى بيروت، سـأل عن عبّود، ووصـل إليه بعد أيّام، ووجد عبّود ابن قريته، وقريبه، ففرح به، ولم يكن رآه منذ أن كان طفلًا، وها هو اليوم: ماشـاء الله.. شـابّ مربوع، بشـاربين ناعمين لم تمتدّ إليهما شـفرة، وعينين تشـعّان قلقًا. بقي عبّود في بيروت سـنوات طويلة، عرف مسـالكها وحاراتها، وعرف سـاحات العمال المياومين التي تنتظر معلّمية البلاط والدهان والزريقة والخواجات الباحثين عن أعمال مختلفة، وعرف مكابس البلوك والبلاط. واشـتغل حارسًـا لبناية أشـهرًا طويلة، واشـتغل عند سـمّان شـهرين. عرف بيروت الشـرقية، وبيروت العربية، ومخيمات الفلسطينيّين.

يعرف عبّود بيروت، بيروت التي تتجدّد كلّ يوم، ويعرف لسانها العربي الفرنسـي، يعرف لهجات أهلها، ويعرف الطوائف والملل. ولكنّه أيضًـا ابن العطشانة القرية التي لا يعرفها أحد إلّا أهلها.

- بي مكبس بلوك جديد، صاحبو خواجا، بدّو شب قبضاي.
- أي شغلة؟ ما يهمّ؟

في أيّام قليلة شـرب مصـطفى الصـنعة، كيس من الإسـمنت وسـت تنكات من الرمل. يخلط المزيج جيّـدًا برفش مختلف قليلًا عن كاروك الفلاحة، وحين تتكوّن العجينة، يشـغّل آلة رجراجة، ويلقمها من مزيجه، ويأخذ القالب إلى ساحة مجاورة. تذكّر مصطفى قطع اللبن في القرية، وفي البريّة، حين يمزجون التراب الأحمر بالتبن، ويخمّرون الـ«جبلة»، ثم يحملونها إلى المقطاعة الخشـبية المثبتة على الأرض، ويرفعونها عن لبنتين متطاولتين، ستشوى في شموس القيظ.

فتحت عمشة كيس النايلون الكبير: قماشة كودري حرير زرقاء بنقاط بيضاء ناعمة، شالات مورّدة ملوّنة، كيس حنّة، ومستطيل معدني صغير بهيّ المنظر:

- شني هاذي حجّي؟
- هاتي اشوف.. هاي جدّاحة رونسون، مثل الـ عند جمعة.
- الله يوفقك يا ابني وين ما تگبّلت
- الله يوفقو.. بس لو ظالّ ماچان أحسن؟ احنا شلنا بهالدراگيع؟ دحگي شلون حالنا؟
- معليش يا حجّي الغربة زينة، باچر يْعَسى ويرجعْ لْنا زْلمة.

في اليوم التالي، زارها عبّود البرهو، وقال لها إنّ مصطفى يريد حسنة الشعبان، ويريد منها أن تكلّم أهلها إن كانوا موافقين، فسيتقدم إليها بعد أن يمضي السنة، ويجمع مهره بيده. وطلب إليها أن يكون ذاك سرًّا، وفرحت الأم وأحسّت بشيءٍ غريب، شيء يشبه الغيرة، فكيف لـ «عجيّة» أن تخطف منها روحها، واتخذت موقفًا طارئًا من البنت وأهلها، زانتهم بميزان النقد، شعبان الفيّاض، وعنود العلي، وتجمّعت في دقائق كلّ الصور السلبية لرجل وامرأة عرفتهما طفلين وشابّين وزوجين وأبوين. واستصعبت فكرة أن تترضّى عنود قائلة: «يا خيتي يا أمّ خليل، مصطفى يگول، ما ريد غير حسنة، واني اعدّْها مثل بنتي... »، أعادت السيناريو المتخيّل مرّة بعد أخرى، وأحسّت بصداع مفاجئ، فقرّرت تأجيل الموضوع، ونظرت إلى الحاجّ الذي يتمثّل قدّاحته الجديدة:

- حجّي تشرب چاي؟

وضع الحاج سطّام المنقلة أمامه في الصباح الباكر، وهز قبضة حصى في يده حتّى سمع صليلها، ومدّ رجليه نحو «الصوبة» ثمّ ملأ البيوت الفارغة بالحجر، دار عليها حجرًا حجرًا، ثم زوجًا زوجًا، واقتربت منه عليا، فأعاد وضع الحجر مداعبًا حفيدته:

- جوز.. جلَموز.. شايب.. عاجوز

فتضحك عليا، وتقول له: جدّي انّوب، فيكرّر الحاج: جوز.. جلموز.. شايب.. عجوز.

كان جمعة يعدّ دفتر حسابه ليطالب الفلاحين بأجور الفلاحة، وقد تسلّموا الحساب بالأمس. وينتظر من زوجته أن تأتي بالفطور، بعدما خبزت خبزة اليوم، ثمّ جاءت بـ«التالي»،ولم يكن جمعة لينتظر، وقال الحاج سطام:

- اعطيني كشمة.

- استنّم الچاي، قالت المرأة وجاءت بالشاي مع صحن فيه سمنة لم تنج أطرافها من الدبس الذي يدهن به وعاء الجلد.

- يا عراااابْ

- حولمْ .. أهلًا وسهلًا

كان رجب المحسن رفقة ابنيه صالح وأحمد، يرتدون فراءً ثقيلة، وعلى وجوههم معالم الجدّ. نزعوا أحذيتهم عند الـ«عتّابة»، وسلّموا على جمعة الذي استقبلهم واقفًا، وحاول الحاج سطام الوقوف متكئًا على ركبته:

- لا والله ما يصير يا حجّي.

- منشان أبو صالح.. هذا أخوي

- حولمْ

- افطرْ بســاع، وخلّينا نشــرب الچاي ببيت شــعبان الفيّاض، رايحين نخطب بنتو لعْبيدْنا.

- انشالله خير «قالت العجوز» وأردفت «بنيّتن زينة وحشيمة».

- خذم معاكم حج حميدي والشيخ تا يرمولْكم من السياگ.

كانت الغرفة الصغيرة مرتّبة، وكأن أهل فضّـة على علمٍ بالزيارة، جلس الرجال، ولصق الباب جلست فضّة متوجّسة خائفة، وحين استأذن أبوها الخُطّاب، ابتعدت قليلًا، وقالت لأبيها الذي سألها عن رأيها:

- بكيفك يا يابا.

وأدرك الرجل أن الفتاة موافقة، ولا شــكّ أن النســاء قد رســمن كلّ شيء، ولم يبق غير جاهة الرجال، فهزّ رأسه، وعاد إلى الرجال.

- على خيرة الله، السياگ مثل بنات عمها ستّ آلاف.

- وخاطر الزلم.

- مرمي من السياگ كرمى للشيخ ميّة وكرمى للحجّي ميّة وكرمى لك يا جمعة ميّة

- اگرم الفاتحة.

وفي ذلك الصــباح الكثيف بالبرد والغيم كان إبراهيم يهمّ بالخروج من البيت، منتظرًا موافقة أمّه المشغولة بالفطور، وعلف الدوابّ. فيما صوت الراديو الذي ظلّ مفتوحًا حين غادر الأب وهو يسمع الأخبار.

- خلّيك عند اخوتك

- اني عطّلت منشان العب

- الدنيا باردة.. خايفك تمرض.

حين عاد الشيخ أخبرها أنّ عبيد الرجب سيتزوج فضّة الشعبان، فلم تفرح الأم، وكانت عمشـــة الخلف قد طلبت منها بالأمس أن ترافقها لزيارة الشـعبان. وجد إبراهيم الفرصـة مواتية لينسـلّ بهدوء خارج البيت، فيما صوت فيروز يملأ الصباح البارد بأغنية جديدة:

يا أهل الدار طلوا طلوا الحبايب
شعلانة النار والسكر قلبه دايب

يا أهل الدار دارت فينا العلية
والورد زرار حنّوا عالورد خطية
ويا بنت الجار لا تجوري كتير علي
صار اللي صار والعمر الطيب طايب

باعث مرسال يسأل عن بنت صغيرة
قال يومها قال كان ينطرها بالجيرة
ويا فاضي البال ما تدوق انشالله الغيرة
ميل خيال و انخطبت إنت وغايب

[19]

«هناك وهناك.. ع البسـيسـة والجريو». اندسّـت زوجة جمعة جانب أولادها، وأكملت وهي تداعب شعر عليا، «گالت البسيس للجريو هـ رواح نصيد عصافير، الجريو گال ماروح، وظلّ نايم.. راحت البسيسة، وشافت غار، حطّت رجلها بالغار.. انّها حمرا، حطّت رجلها الاخرى بالغار انّها خضـرا، حطّت رجلها الاخرى بالغار، انّها زرگا، حطّت رجلها الاخرى بالغار انّها بالغار انّها صـفرا» وظهر طيف ابتسـامة على محيّا عليا والصـغيرين، وبدوا مستعدّين للنوم «راحت ع السلطان، لبّسـها ثوب گيطان، راحت ع الوزير لبّسها ثوب حرير» واتّسعت بسمات الصغار تحت اللحاف، وكادوا ينامون لولا أن رفس الصـغير أخاه، فصـرخ.. «كمّْلي يمّاااه» قالت عليا «جت البسيسة ع الجريو، وتعجّب الجريو، وسألها من وين جابت الثياب وصـبغت رجليها، فخبّرتو، وراح الجريو، وشـاف الغار، حطّ رجلو بالغار انّْها مكسـورة» وضـحك الأولاد ورفس الجميع بعضـهم تحت اللحاف، وضحكت الأمّ لمرح أولادها «حطّ رجلو الثانية بالغار انّها مكسورة » وقهقه الأولاد وطار النوم تمامًا «حطّ رجلو الاخرى بالغار انّها مكسـورة.. حطّ رجلو الاخرى بالغار... » وسـكتت الأم موحية للصـغار اليقظين أن يكملوا: «انّها مكسـورة» قالتها عليا وجسّـام في الوقت نفسـه، وتبعهما سـطّام الصـغير بقليل «انّها مكشـولة» وضـحك الجميع «راح ع السـطان ضـربو بالزوّ انّو گايل هَوْ.. «هوووو» قال الصـغير، «راح ع الوزير ضـربو بالزوّ انّو گايل هَوْ.. راح على عليا: ضـربتو بالزوّ انو گايل هَوْ» ورفعت يدها كأنّها مقصّ. «راح على جسّام ضربو بالزوّ انّو گايل هو.. راح على سطّااااام... » ورفع الصغار أصابعهم: «ضربو بالزوّ انّو گايل هوووو»..

و«هاي الجيرة من العشــيرة» قالت الأمّ، وقد أعادت تغطيتهم، وقد كشّفوا بعد فاصل المرح. «خورفي لْنا انّوب» قالت عليا.

نامُمْ والينام أوّل شي، أعطيي من لْبَا النعجة الجرنة الـ ولدت اليوم.

في تلك الليلة الشتوية الباردة لم تزر العطشانة غيمة واحدة، كان ثمة غيوم تجمعت عصرًا ثمّ تبدّدت مع الغروب، وكأنّها جاءت تشيّع الشمس إلى سرير نومها اليوميّ، وفي بيت شعبان كانت الفتيات يساعدن صديقتهنّ في شـدّ المفارش واللحف. وفي غمرة انشـغالهنّ قالت حسـنة للعمّة فاطم العليّ: عمّااا.. خورفيْ لْنا على جمل غيدا، وابتسـمت الحاضـرات بحزن، وقالت أمّ عناد، لا تخوفنّا بـ هالليل، وألحّت فتاة صغيرة لم تسمع القصة سابقًا:

«هناك وهناك.. چان بى بنية يتيمة اسمها غيدا، وأخوها اسمو محمّد، وچانت مرة ابوها ما تحبها، وظالمتها، وبيوم جا بيّاع على جحش، وعندو بضـايع، ويگول التعبّي الخرج حبّ أعبّي ايدها ذهب، گالت غيدا لمرة ابوها خلّيني اروح اشـتري، گالتْ لْها تا تخلصـين الشـغل، وأعطتها قبطة حبّ» ونظرت فاطم العلي إلى الفتيات على ضوء اللمبة، وقد استبدّ بهنّ الضيق والقهر. هممم كمّلي، قالت حسـنة «ولمّن شـافها البيّاع حبّها، وچان كل ما جتّ بنيّة وعبّت الخرج حبّ يفضـى، بس جت غيدة، وحطّت قبطة الحبّ تعبّى الخرج، وگال لها، الذهب لچّ.. تعالي معاي ورا الحمار، وكلّ ما وگّفتّو گال چي حماري چي.. أنا بقف، حماري ما يقف.. چيي.. ثاري البيّاع جنّي حنفيش، ولمّن حبّ غيدا خذاها على بيتو.. مغارة بعيدة» وأصـاب الخوف الفتيات، وحسبن حساب العودة إلى البيوت، فزاد الخوف: «وصلم المغارة، وحطّ الحنفيش غيدا بالمغارة المعبّية ذهب، والبنيّة تبچي، واخوها مْحِمّد

يدوّر عليها، وهوّ سارح بالجمال، بس مرّة .. شاف جمل غيدا نايم فوگ المغارة، وگال:

جمل غيدا يا حزين،
مشلگح بذاك البطين
كلّ الجمال ترعى
ألّا جمل غيدا حزين..

وسمع صوت:

غيدا بجناجلها
جاها الدبّ ونِجَلها
مْحِمّدْ يا ابن والدها
بلچي يهديكم عليْ

وأحست فاطم العلي بخوف الفتيات، فأنهت القصة بفكاك أسر فتاتهنّ، وأكملت وهي تنهض: «وهاي الجيرة من العشيرة»، ولكنّ الفتيات خشين من الوقوف، طالباتٍ من أمّ حسنة أن يرافقهنّ أحد: «وين عمّي شعبان يونّسنا؟».

- شعبان يتعلّل.. آني أونّسچن.

وكانت التعليلة قد طابت في بيت الحاج علي، وقد تركه الشباب مبكّرًا، يسهرون عند عبيد الرجب ليلعبوا الصينيّة، أو السكمبيل، ويطلبوا آخر الليل برتقالًا، أو ديگا، وبقي الحاجّ يستمع لإذاعاتٍ مختلفة تلوك أخبار السياسة. وصل الشيخ يونس، والحاجّ حميدي معًا، وقد صلّيا العشاء في المسجد، وجاء إسماعيل العلي، وسالم الصطاف، رجب المحسن، وشعبان الفيّاض، وعبد السليم، وحضر إبراهيم رفقة حمّادة، وامتلأ

مجلس صغير، شربوا الشاي، ولفّوا سكارات الغازي. وقال عبد السليم: «وين القصّة» كملونّا ياها، وين وصّلْنا: فقرأ الشيخ:

«قال الراوي: فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها، صدّق كليب مقالها، وأرسل في الحال يطلب أخاه الزير، فدخل وسلّم عليه، وقبل يديه، وقال بقلب جَسور: أنا عبد مأمور، ولا أخالفك بأمر من الأمور، فأعلمه كليب بالواقعة، وقال أريد منك يا أخي أن تأخذ هذا الحُقّ الصغير، وتملأه من حليب لبوة» وتحسّر الرجال، وظهر على وجوههم الأسف، وقال شعبان الفيّاض: الله يلعنهن.. وأردف سالم: «كيدهنّ عظيم.

«فقال على الرأس والعين، ولكن يا أخي أعطني سيفًا أتسلح به خوفا من هجوم السباع، فقال كليب للجليلة أن تعطيه السيف، فقالت له: ألا تستحي يا زير أن تطلب سيفًا وأنت في هذه الشجاعة؟ فخجل، وأطرق رأسه، وسار من وقته وساعته، وقد تأكّد أنها تريد هلاكه وضرره» ولم يتمالك شعبان نفسه، وأعاد عبارته بنبرةٍ أقوى «كيدهنّ عظيم»، ولم يشأ الشيخ أن ينهي القراءة رفقًا بالمشاعر المحتدمة تجاه الجليلة. «وما زال يسير حتى وصل إلى غابة كبيرة كثيرة الأشجار والصخور، وليس معه سوى سكين وعصا، فبينما هو ينظر من خلف وقدام، وإذا بأسد قد ظهر، وهو هائل المنظر، وعيناه تقدحان بالشرر» وظهر الخوف على وجهي إبراهيم وحمّادة الصغيرين، وأكمل الشيخ: «فلما اقترب منة قبض عليه الزير، ونشله بقوّة ساعدهِ وزندِهِ، ولوّحه بيده مثل المقلاع، وخبّط به الأرض، فرضّ عظامه» وهزّ حمّادة يده مع الشيخ، وكأنّ أسدًا بين يديه «ثمّ نزل علية بالعصا حتى قتله» ونفخ شعبان دخان سيكارته بشفتين مدوّرتين، ومدّد رجليه «وأراد ان يجزّ رأسه، وإذا بلبوةٍ قد أقبلت عليه، ومن خلفها

سبعة أشبال». وتحيّن الشيخ فرصة تثاؤب الحاجّ، فأنهى القراءة. ونهض الجميع متثاقلين، وقد تنفّسوا الصعداء، ملقين على الحاجّ تحية واحدة:

- تصبحون على خير.

وكان شباط على بعد يومين، حين وجد محمود بيطار نفسه وحيدًا في ذلك الليل الطويل، بعد ذهاب زميله إلى قرية مجاورة يزو زميله، ولم يجد غير روايةٍ جاء بها هيثم البكّور، من إصدار دار العودة في بيروت، لكاتب سوداني يسمع به للمرة الأولى، هو"الطيب صالح" وقد جذبه عنوان الرواية «موسم الهجرة إلى الشمال» وقد قرأ بضع صفحات في النهار، وعندما عاد إلى الغرفة مساء قرّر أن يكمل الرواية، فغدًا عطلة، وسينام متأخّرًا، ورفع محمود فتيلة اللمبة، فارتفع الضوء، وتمدّد على فراشه، وراح يقرأ:

«مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، 16 أغسطس عام 1898. الأب متوفي، الأم فاطمة عبدالصادق، فتحت بعد ذلك جواز سفره، الاسم، المولد، البلد، كما في شهادة الميلاد. المهنة (طالب). تاريخ صدور الجواز عام 1916 في القاهرة وجدد في لندن عام 1926. كان ثمة جواز سفر آخر، انكليزي، صدر في لندن عام 1929. قلبت صفحاته فإذا أختام كثيرة، فرنسية وألمانية وصينية ودنماركية. كل هذا شحذ خيالي بشكل لا يوصف، فلم أستطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق. ولابد أن وجهي كان مشحونًا بالترقب حين نظرت إليه. مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة، ثم قال: إنها قصة طويلة. لكنني لن أقول لك كل شيء».

[19]

صفّاكة
باچر تجينا الناگة
نذبحها ع المشراگة
كلّ منْ لوّ حزيز حزيز
ألّا عليا ليها ذريگ الطير

وضحك الجدّ، وضحكت عليا، وضحك أخواها الصغيران، فيما الجدّة تسأل كم بقي من المربعانيّة، وكانت موجة البرد قد انكسرت، غير ليالٍ متمرّدة على الدفء الآتي، وسافر أهل العطشانة، إلى قراهم في البريّة ليطمئنّوا على زروعهم، وامتلأت سفرة الصباح بصحون الخاثر، المسترقة من فائض الحليب في ضروع النعاج، وأكل إبراهيم اللبأ غير مرّة في بيت الشيخ، وعند الجاسم العلي حين يقضي مع حمّادة سحابة اليوم. ينظر بفضول ومرح إلى «صوبة» الجلّة، وهي تحوّل البعر إلى كرات صغيرة من الجمر. وكانت العطلة الانتصافيّة قد قاربت على النهاية، فتسرّب القلق إلى الصغار الذين سيساقون في الغد إلى مجمّع العقاب، بعدما نسوا الدراسة والكتب والدفاتر، وفي ذلك المساء كان ثمّة أطفال في الساحة الصغيرة، يركبون فوق براميل صغيرة فارغة يدحرجونها بأرجلهم، ولكنّ إبراهيم لم يملك الرغبة ليشاركهم اللعب، بل غادر إلى بيته يحضّر حقيبته الصغيرة، ويتأكد من أقلامه ودفاتره.

لم يكن عبود البرهو ليغادر قبل أن يحضر العرس، وكان يمنّي النفس أن يدبك ما وسعه ذلك، ولكنّ موت جاسم العلي حال دون العرس،

واقتصر الأمر على زفّة صغيرة من بيت شعبان إلى بيت رجب المحسن، كما أشار عليهم سالم الصطاف:

- زفّة زغيرة.. طالعة من بيت ابوها، فايتة ببيت الجيران.

وفي بيت رجب ذبحوا نعجتين سمينتين، وألحق ابنه مصلح «جذعة» بالذبيحتين، فقد غادر العطشانة أهل القطعان الكبيرة إلى الشمال، وكانت ذبيحتان تكفيان لأهل القرية كما دبّر عليهم جمعة، وجاء عابرو سبيل فحلف عليهم رجب المحسن، وجاء معلما القرية، فابتعد الطلاب عن ساحة البيت، خلا شابّين صغيرين ظلّا يصبّان الماء على أيدي الرجال، وحين عادت الصحون عاد الأطفال مرّة أخرى، الأطفال الذين كانوا متذرّين عند بيت سالم الصطاف خوفًا من المعلّمين.

وكان دحّام يجيد «العدّ» فهو يحفظ أغاني الفرات التي تُغنّى في الأعراس، فغنّى والفتيات يردّدن معه، لازمة «كلّ الهلا بالناهي.. » وكان دحّام يضيف بصوته الجميل، كلّ ما يؤثره الفراتيون عنّ فتيات الناهي الجميلات، غنّى لفاطم ووضحة وغنّى لذوات الخزام الذي يزّين الأنوف، والحِجْل الذي ظلّ أثرًا في الذاكرة، وكانت غير واحدة تلبس «جهاديّات» أمّها، فوق طقم الشلاليح الذي اشترت بعضهنّ منه في موسم القطن.

لم يبق بيت إلّا وأصابه شيء من خير القطن: القاطفات اللواتي قضين شهرًا كاملًا، يحملن تنكًا فارغًا يملأنه ويذهبن به إلى مكان الشلول، حيث يملؤه شباب أقوياء يتحدّون بعضهم في أوزان شلولهم، مقابل أجرٍ أيضًا، وهناك السكّاي، والمقبّعات، والمعفّشات، وهناك جمعة أيضًا، الذي يفلح الأرض قبل نثر البذار، وحرثها ثانية بخطوط عمودية وأفقية يسمّونها: «الچوالي»، فتحدث مربعات صغيرة يسمونها الألواح، تفصل بينها سواقٍ طويلة.

تكثر الأعراس في الصـيف، ولكنّها تحدث في الشـتاء أيضًـا، حين يأتي موسـم القطن، أو تهبط ثروة مفاجئة على ذوي «الجهّال» الذين خطّت شـواربهم، وبدؤوا يرتدون العقال، والسـاعة السـويسـرية، ومسـدسـات «السـتّة ميلي»، يضـعون الهويّات في جيوبهم، ويسـتعدّون للذهاب إلى الجيش، ويمتطون ظهور خيولهم التي تسـتريح من الجرّ في الشـتاء، فتبدو وكأنّها خيل أصـيلة، حين تنال شـيئًا من الدلال، والأحذية الجديدة التي «يحّذيها» بياطرة قادمون من الباب أو حلب، يرحلون نحو الشـرق الفتيّ الواعد، بعدما بدأت زراعة القطن.

كانت الزفّة قد وصلت بيت الرجب الذي لم يكن بعيدًا، ورأى محمود بيطار انسجام الروح في المجتمع الصغير، يضحكون ويغنّون، وكأنّهم قد انفصـلوا عن الواقع، وتمنّى لو يكون واحدًا منهم، ونظر إلى زميله الملتحق حديثًا، وقال له إنّ هذه الزفّة تذكّره بأعراس الحارة، وابن عمّه الذي يجيد لعبة السـيف والترس في الأعراس، وغامت عينه، فتدارك ذلك وشغل نفسه بسؤالٍ:

- تأخّر المفتّش ما هيك؟

وكانت الحيرة تفعل فعلها في إسـماعيل العلي، الذي خرج من السـجن وجه العيد، دون أن يتّفق مع عليان الصـبحي على مصـير الأرض، فإطلاق سراحه لم يحسم مسألة الأرض، وقرّر قرارًا صارمًا، وهو يدخّن سيكارته في المجلس:

- الأرض عرض.

ولم يسـمع أحد همهمته، وتصـوّر الأيّام التالية لهذا القرار: سـيحرث الأرض كلّها، ولن يعزل أرض صـبحي، و«الـ يصـير يصـير»، وتحسّـس مسدسه، وتذكّر أن الـ«ـفشگ» في البيت لا يكفي، وأنّه لا بدّ من شراء

«دســـتة» أو اثنتين. ولفّ ســـيكارة ثانية، ونادى الولد الذي يحمل إبريق الشاي:

- محمااااد تعال صبّ صبّ.

جاء العريس، ووكيل العروس ســـالم الصـــطاف، وجلســـا بين يدي الشيخ، والشيخ يقرأ عليهما عباراتٍ يردّدانها وراءه:

- زوّجتك موكّلتي فضّة الشعبان على سنة الله ورسوله ومهرٍ قدره ست آلاف ليرة معجّل وليرة واحدة مؤخّر.

- قبلت

وكرّر الرجلان ما أملاه الشيخ ثلاثًا، وقرأ الجميع الفاتحة، وهنّأ الجميع العريس، ثمّ جاء خميس ودحّام وثلاثة شـــباب آخرين، وخطفوا الشـــابّ الصـــغير عبيد، وعاد الجمع إلى أحاديث وداع المربعانية، واســـتقبال السعود بأيامها الخمسـين قبل الربيع، وأسـعار الفلاح الجديدة، والسـدّ الجديد، وغرقوا في أحاديث أنستهم أن سواد الظلام استبدّ بجدار الكون، قبل أن يسـمعوا طلقات خفيضـة الصـوت من مسـدس صـغير، فالتفت الجميع إلى المصدر مستغربين:

- خذاها!!

وهلهلت نساء أيضًا.

وفي اليوم التالي، كانت صـــورة العرس ما زالت ماثلة أمام محمود بيطار، وفي الحصّـــة الثانية، طلب من ســـليم المحمد أن يغنّي له ممّا غنّاه دحّام بالأمس:

كلّ الهلا بالناهي لي جنّ كلهنّ
ريحة مسك وخضيرة بطيّ گذلهن

فسـألـه المعلّم عن «خضـيرة» و«گذلهن» فلم يعرف شـيئًا، واسـتعان المعلم بطالب من الصـف السـادس. وفي حصّة النصـوص: قرأ المعلّم قصيدة لرشيد أيوب للطلاب الكبار:

يا ثلجُ قد هيّجتَ أشجاني
ذكّرتني أهلي وجيراني
باللهِ عَنّي قُل لإخواني
ما زالَ يرعى حرمةَ العهدِ

وهاج حزن خفيف في صـدر المعلّم، وانمزجت صـورة عرس الحارة ورقصة السيف والترس، بالقصيدة التي قرأها قبل سنين، دون أن تحدث فيه مثل هذا الأثر، وأكمل محمود:

يا ثلجُ قد ذكِرتني أمّي
أيّامَ تقضي الليلَ في همي
مشغوفةً، وتحَارُ في ضَمّي
تحنو عليّ مَخافَةَ البردِ

وحشـرج صـوت المعلّم، ووقف قليلًا لا يدري ما يفعل، وطال سـكوته، ولكز سليم زميله إبراهيم:

- دحّگ وال.. الاستاز يبچي.

[20]

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، يا جَذْب الــ زْلامْ، مَرْتَكْ جابتْ غُلامْ، الــ ماهو منكَ، والماهو منها، ولا هو زنوة، ولا هو حرام.

وضحك الجالسون، فاحتشد عبيد الرجب الملتحق حديثًا بفريق المتزوّجين، وضحك الحاج علي وأغمض عينيه لشدّة الضحك، وتدارك عمامته قبل أن تسقط، فلفّها من جديد.

- احترم حالك، انتَ چبير، وحاجّ بيت الله.

وتعالى ضحك المجلس، قبل أن يفهمه سالم الصطاف، أنّ «الماهو» يعني ماء الرجل وماء المرأة، فانتاب عبيد خجلٌ طفيف.

كان شباط قد مشى في عروق الشجر، وجلد الأرض، وانخفضت أسعار البيض، فصار العجائز يبعن الــ ست بيضات، بسعر الــ أربع بيضات، وتعالى مواء القطط في الليالي المظلمة، وانتظر الجميع ربيعًا آخر، يعوّض أعوام الجفاف.

- ان عمرَت وراها آذار، وان خربت وراها آذار.

- الـ يجي من ربنا زين.

بحث الحاج سطّام عمّن يلاعبه المنقلة، وتحدّى الحاج علي الذي ترك دكّانه، وبيته، والراديو، وقد أنس إلى «التعليلة»، ولم يكن الحاجّ علي ماهرًا في المنقلة، ولا الحاجّ سطام، لكنّهما وجدا نفسيهما فرسي رهان في محيط من رجال العطشانة:

- انتَ شـ معرْفك باللعب يا حجّي.

- وال.. علي ي ي، «خَلْ مَيْتَك بلوْحْهَا».. تعال.

ولم يتركهما الجمهور وحدهما، بل تحوّلا إلى مدرّبين، يحصـــون غنيمة كـلّ خصـــم من الحجر، وينظرون إلى الحفر المجوّفـة تمتلئ، وتفرغ، فيشيران على العجوزين أن ينهضا بالبيت المليء بالحجارة قبل أن يفسـد، وكانت معركة مدرّبين تركهما العجوزان يحرّكان الحجارة.

وانتصـف الليل، وسـاد دفءٌ غرفة المجلس، فتخلّى الرجال عن الفراء الثقيلة، وأغمض جمعة عين اللوكس مرّتين، فعاد باهرًا، وجاءت زوجته بالسهريّة التي يعرفها كلّ أهل العطشانة، إذ يجوع الساهرون آخر الليل، فيلتمســـون في البيت الذي هم فيه خبزًا مع الشـــاي، وربّما جاء مع الخبز «تالي عشـــا» أو ســـمنة ودبس، أو خاثر دافئ، لم يكد يتخثّر، وقد صـــنعته الأمّ بعد صلاة العشاء. ولم تكن سهريّة جمعة العليّ متقشّفة يومًا.

- روح.. روح تعلّمْ وبعدين تعالْ لاعبني.
- الحجر خان معاي.. الغلب بالگعود.

وضحك الحاج سـطّام وهو يلوّح بقبضـة حصا فائضـة عن حجارته الـ 49، بعد أن ملأ بيوته، وقال للحاجّ علي وهو يفرغ الحجارة الفائضـــة في جهة خصمه زوجًا زوجًا:

- هـذي لجمعـة، وهـذي لـك، وهـذي لســـالم، وهـذي لشـــعبـان، وهذي..

وضحك الجميع، والتفت الحاجّ سطام إلى جمعة:

- والله جعنا.. شـ عدكم؟

وجاءت أمّ جمعة بخبزٍ وسمنةٍ صفراء، في صحنين، وجاء جمعة بإبريق الشاي، وتذكّر الجميع إسماعيل العلي.

.

أخرج إسـماعيل مسـدّسـه، وفكّه قطعةً قطعة، كما كان يفعل في الجيش، وحشا المشطين الصغيرين بالرصاص، هيّأه فارغًا، ثمّ أطلق في الفراغ، فسمع صوتًا مطمئنًا أنّ مسدّسه جاهز.

يمتلك إسـماعيل «تفنگة» فرنسـية قصـيرة، ورثها عن والده الذي اشـتراها أيّام الفرنسـيّين، وظلّ أبوه يخفيها طيّ النضـد، رغم أنّه أطلق في الأعراس، أطلق فوق رأس أعمام إسـماعيل واحدًا واحدًا، وأطلق أكثر من مرّة في البرّية نحو الذئاب واللصـوص، ولكنّ الـتفنگة ليسـت السـلاح الخفيف، الذي يمكّن صاحبه من إخراجه من جانبه في طرفة عين.

لم يكلّم أحدًا، ولكنّ زوجته تعرف كُنْهَ إسـماعيل الذي لا يصـرّح إلّا أمام أخته أمّ عناد، وتعرف أنّه تأثّر بتطاول شابّ غرّ على حقوقه، صحيح أنّه لم يسـجّل الأرض باسـمه، غير أنّها أراضـي انتفاع، حدودها متعارف عليها بين الجيران، وهو يعرف أنّ الشابّ يستقوي بالموظّفين الجدد.

حينّ هيّأ مسـدسـه، قالت له زوجته: «تعوّذ بالله من الشـيطان.. ألّا ما نلگى لْها دُبّارة»، وظلّ إسـماعيل ينظر إلى علبة الرصـاص التي اشـتراها بالأمس، وعدّها كأنّه يعدّ حجر المنقلة، وقال فجأةً:

- گومي سوّي لْنا چاي.

*

- التعليلة عند عبّود البرهو. قال دحّام لخميس.

كان دحّام وخميس راعيين حقيقيّين، رعيا الغنم عند البدو في الشمال، رعيا سنين طويلة، وأتقنا شبك الأغنام في صفوف طويلة عند الحلب، وأتقنا تنبيه القطيع للنهوض إلى المراعي، أو للعودة إلى البيوت، وأتقن دحّام النفخ في «الزّمارة» والعزف على الربابة، ولم يتقن خميس غير

استخدام الزّمارة، ولكنه حفظ القرآن الكريم، وظلّ على عهده بكلام الله، إذ استوهب له المرحوم مصحفًا، ظلّ معه في مضارب البدو.

بعد العرس، كانت رغبة دحّام في العزف على الربابة، ولكنّه لم يجد ربابة في العطشانة كلّها، فأعمل فكره من يومين، وجلب عبوة تنك صغيرة فارغة، وفرع شجرة صفصاف، وضعها في قلب العبوة، وأسند إليها بضع خيوط سلك النايلون، ممّا يستخدمونه في «لضم» المسابيح، وصنع وترًا من ذيل حصان عمّه عبود السليم، رابطًا طرفيه بعود منحنٍ.

وضحك الشباب يتندّرون بالربابة الغريبة، ولكنّ الضحك اختلط بحزن خفيف، وبكاء وشجن حين غنّى دحّام النايل والسويحلي، وجاءت أمّ عبّود بالشاي، وأطرقت قليلًا وهي تسمع الأغاني الشجيّة، ونظرت إلى ولدها الذي سيسافر في الغدّ، ثمّ بكت.

[21]

ع الشتّي

ع البتّي

بريج الغاز

شبّر يا استاز

لم تكن نجمة في عمر عليا، بل إنها أكبر منها بعام وبضعة أشهر، وحين سجّلوا البنات في المدرسة للمرّة الأولى، بكت نجمة لأنّ ابنة عمّتها عليا في المدرسة وهي في البيت، ولم يكن أمر دخولها المدرسة سهلًا، ولكنّ أمّها أقنعت الأب أنّها لن تكمل حتى تكبر، بل ستقرأ سنة .. سنتين، حتى تتقن فكّ الخطّ.

وكانت نجمة أمهر من عليا في لعبة «الصكّلة»، وما إن حلّت تباشير الدفء في المكان، حتى جاءت بحجارةٍ صقيلة مدوّرة في حجم بيض العصافير، فترفع واحدًا فوق، وتثبت اثنين على الأرض، ثمّ تلتقط المصكّال النازل إلى الأرض قبل أن يقع، ثمّ ترفع حجرها الصغير فوق وتمسك الحجرين الثاويين مع الحجر الهاوي بقوّة الجاذبيّة. وهكذا كانت نجمة تحذف حجارتها فوق ثم تلتقطها، وعليا تراقب منتظرة خطأً ما، حتى تنتقل إليها اللعبة. ثم تنزل الحجارة فوق يدها التي انفتحت ولامس خنصرها الأرض، على شكل شبر، لتضع الحجارة على كفّها، ثمّ ترفعها فوق، وتهوي بقبضتها فتمسك الكرات الحجرية الصغيرة، وتحسب النقاط الجديدة على الخصم المستسلم:

- صار عليچ 20 دودة... من هين للشام ممدودة «ثمّ تضحك ضحكة انتصار».

فتبكي عليا، وتطلب منها طريقة للفكاك من الدود المتجمّع، فتقترح عليها نجمة أن تكتب عنها الوظيفة، وفي بعض المرّات أن تقاسمها «دُرم الدبس» أو أن تشتري لها بيض العصفور، ولكنّ عليا نقلت لعبة المصاگيل إلى البيت، وتمنّت لو كان أخواها الصغيران يجيدان اللعب معها، لفازت عليهما. واستغربت الأمّ اهتمام عليا المفاجئ، وتذكّرت أيام كانت تلعب مع رفيقاتها في الربيع، وكيف كانت ابنة عمّها «منفيّة» تؤلمهنّ حين تفكّ الدود بخمش أياديهن.

وضعت أمّ عناد كيس العلف جانبًا، بعدما ملأت «الطوالات» بالتبن، ثمّ جاءت بحفنات قليلة من الشعير، وكأنّه إدام، ونثرته فوق التبن، وأعادت كيس النايلون السميك إلى مخزن التبن. حين جاءت نجمة كعادتها قبيل المساء كي تتفرّج على لقاء الخراف الصغيرة بالدوابّ، بعد يوم طويل من حبسهنّ في «القاووش» في انتظار لقاء المساء، بعد العلف والحلب.

جاءت الأغنام والتهمت علفها ببطء، وقفزت عنزتان فوق «الطوالة» فأدركت العجوز أنّ الحلال غير جائع، فربّما عثر الراعي على مرعى معشب، فطلبت من حفيدتها الكبرى أن تعينها على حلب الدوابّ. بين گطنة ونجمة خمس سنوات، وأخ في العاشرة، ولم تكن مدارس أيّام الفتاة التي كبرت فجأة، وبدأت العائلة تعتمد عليها في أعمال البيت. تقدّم گطنة الدواب واحدة واحدة أمام جدّتها، التي مدّت أمامها «جدريّة» الحليب، فتلمس ضرع الدابّة، ثم تداعبها برفق، ثم تحلب شيئًا فشيئًا إلى أن تحسّ أنّها استسلمت لأصابعها، ولكنّها تستدرك وتبقي بعض الحليب للخراف المنتظرة، وعرفت نجمة طباع الدوابّ المختلفة مع الوقت: «العرّارة، والحلّابة»، والـ «تغبّي حليبها» والهادية، والشطور.

رفعت أمّ عناد قدر الحليب، فوق الجدار الصغير الذي يكوّن «الصِّيرة»، وفتحت البوابة الخشبية فانطلقت الخراف والفطائم والجداء والسخال، وقد تعالى ثغاؤها، وتحوّل بعد قليل من صخب واستجداء وعنف، إلى ثغاء هادئ قصير، تعقبه حركات باتت تفهمها نجمة، إذ تشمّ الدابّة رأس وليدها، ثم تمكّنه من ضرعها، غير فطيمةٍ صغيرة، ماتت أمّها قبل عشرة أيّام. ظلّت المسكينة تعرض نفسها على النعاج، فيعرضن عنها، ونطحتها النعجة القرناء، فأغضبت الجدّة.

- انتَ الله عليج.. يا مسكينة تعالي..

وطلبت من گطنة أن تمسك الشقراء الحلوب الهادئة، وألقمت الفطيمة الضرع إلى أن شبعت، فتركتها تمرح مع الخراف التي شبعت، وتنهّدت:

- الله يرحمج يمّا.. شايفة يا نجمة؟ اليتيم شيصير بيه؟

وتذكّرت نجمة أولاد جدّها جاسم العلي، فحزنت قليلًا، واقترحت على جدّتها أن «تودّي لهم طُعمة» من عشاء اليوم.

قسمهم المعلّم قسمين، في الساحة، وتأكّد من وجود المرميين، وقد حُدّد كلّ منهما بحجرين بينهما سبع خطوات كبيرة، ثمّ شاط الكرة بقدمه فوق، إيذانًا ببدء اللعبة بين الصغار الذين ينتظرون أن يلعبوا وحدهم وحسب، دون أن يظلّوا خارجًا ينتظرون خروج الكرة ليركضوا وراءها ويعيدوها إلى اللاعبين.

- هنس.. عليكم هنس.

أمسك الاستاذ الكرة، وثبتها أمام مرمى الخصم بـ 11 خطوة، وقال لحمّادة، يا الله شووط.

وقذف حمّادة الكرة بكلّ قوّته خارج المرمى، فسخط زملاؤه، وهتف خصومه، وابتسم المعلّم، وصفّر منهيًا المباراة، طالبًا منهم العودة إلى البيت قبيل الغروب، في ذلك اليوم الطويل الذي عاد فيه الطلاب بعد الغداء إلى المدرسة كما يقتضي البرنامج.

طلب المعلّم من الشباب الصغار وطلابه الكبار أن ينزلوا، وأعاد شدّ رباط «خفّافته» ووقف ينتظر جاهزيّة كتبته الصغيرة.

- الاستاز معانا اليوم، قال خميس، فأشرق وجه الأستاذ، وملأه غرور خفيف، وطلب من زميله أن يقود الفريق الثاني، وتقاسما اللاعبين واحدًا واحدًا. كان محمود البيطار لاعبًا جيّدًا، كوّن فريقًا في حارته الصغيرة، ولاعبوا أبناء الحارات الأخرى، وفي الثانوية اختاره مدرّس الرياضة ليلعب مع النادي، لكنّ أهله قالوا له: «راح تضيّعك الرياضة».

تصارخ اللاعبون، وعلت الصافرة، وتداعى إلى حماستهم جيران المدرسة رجالًا ونساءً، وتابعوا بفضول ودهشة عفاريت صغارًا يتزاحمون على الكرة، ويسدّدون الكرة فوق، وإلى الأمام، وتذكّر الحاج سطّام لعبة «الحوري» وهو يمسك تلك الكرة الجلديّة الصغيرة القاسية بيده، ويضعها على الأرض، ثم يضربها بعصاه العجراء القويّة «الكجنة»، وتقلّصت كفّ الكهل وهو يمسك مضربه، والتفّت أصابعه على «الكجنة» التي ضيّعها منذ ثلاث سنوات. وتذكّر هلاهل النساء عندما يذود عن «محجاج» ربعه، وهو يشاهد فرح الناس والنساء وهنّ يتابعن خميس ودحّام، وقد زادهما الرعي نشاطًا وحيوية، واستغرق الجميع في اللعب، لولا المطرة المفاجئة التي طردت الجميع من ساحةٍ تحوّلت إلى مجموعة بِرَك صغيرة.

- هذا شباط.. ساعة يضحك وساعة يبجي. قال سالم الصطاف، وهو يرافق العجوز، الذي ارتخت يده حول «الكجنة» غير أنّ كرة «الحوري» ظلّت أمامه، تركض بهدوء ونزق .. حتّى وصل البيت.

كان صباحًا باردًا، هبّ هواء شمالي، فنشف جلد الأرض وكأنّها لم تمطر مطرًا راويًا ليلة أمس. وضع إسماعيل العلي «چيدان» الشاي أمامه، ولفّ أكثر من سيكارة. بالأمس غيّرت المطرة من مزاجه الكئيب، ولكنّ الكآبة عاودته اليوم مع هبوب الهواء الشتويّ الناشف، وأحسّ إسماعيل بجوع وبرد معًا:

- سوّي لْنا چشچ.

وفرحت المرأة المسكينة التي تعرف مدى تغيّر زوجها بعد الحبس، وأحسّت بالحرج أيضًا، لأنّ الكشك يحتاج إلى تحضير مسبق، إذ يجب أن ينقع قبل وقتٍ كافٍ، لكنّها قامت إلى بيت المؤونة، وفتحت كيس القماش الأبيض فأخرجت منه ملء قبضتها مرّتين، ونظرت إلى الكرات في طاسة النحاس، فوجدتها قليلة، وفكّرت أن تطبخ للفطور والغداء، فأضافت «قبطةً» أخرى.

- ماعليش اسماعين، شويّة تا يُودن.

ولم يردّ الرجل المستغرق في الأرض والفتى الغرّ الذي هزمه، ومسدسه الجاهز لردّ الثأر.

عادت المرأة إلى كراتها التي لانت بفعل الماء، فأخذت تفتّتها بهدوء، ثم تمرسها بكلّ قوّة لعلّها تطبخ كشكًا جيّدًا، وقرّبت منها موقدها النفطي، فجرّت المحقن ودفعته بضع مرّات حتى امتلأ رأسه الأسود بالكاز، ثمّ واصلت دفع المحقن حتى علا صوته المؤنس في تلك «الصبحية» الباردة.

- يا اهل البيييت.
- تفضلوا
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.. أهلا وسهلا.

لم يكونوا غرباء، ولكنهم ليسوا من أهل العطشانة، عليّان الصبحي، والحاجّ "عگلة" مختار النافعة، ومحيسن الصطوف جاره في الأرض، ورجال آخرون.

- يا أهلًا وسهلًا.

جلس الرجال، ووضع إسماعيل الوسائد بينهم، ووراء ظهورهم. وضع الرجال عصيّهم أمامهم، ووضعوا علب التبغ المعدنية وقدّاحاتهم المختلفة، ومدّ الحاج عگلة يده إلى علبته يريد أن يلفّ سيكارة.

- من هين. قال إسماعيل ومدّ يده إلى علبته، وقذفها بهدوء نحو ضيفه فسبحت فوق الحصير حتى اصطدمت باللبّاد، ووقفت أمام الحجّ عگلة.

تعيش. قال الحاجّ وانهمك في لفّ سيكارته، ونادى إسماعيل زوجته التي تحرّك الكشك بـ«معصاد» الخشب: «سوُّونا چاي».

- لا يمّاا خلّي الچشچ ع النار، ناكل الچشچ.. بعدين الچاي... احنا يا إسماعين جايين نتعذّر من الله ومنك على سالفة عليان.. إذا قبلت اعتذارنا راح نفطر معاك، وان ما قبلت .. هذا حگّك.

وأحسّ إسماعيل بحرجٍ مفاجئ، وببردٍ ينزل في جوفه، فالرجال قدّروه، وها هم أدركوا خطأ ابنهم وإن كان بعد شهرين، ولكنه تذكّر تلك الساعات الطويلة في «النظارة»، وفطور الماء والتمر. أحسّ الرجل المصدوم بلذّة التمر مع الكشك، وتمنّى لو بقي في البيت تمرٌ لقدّمه مع الكشك للرجال.

- أهلًا وسهلًا، فطوركم وغداكم.

وتهلّل وجه الحاج، وقال لإسماعيل «هذا البيك مخبور»، ووقف عليّان وتقدّم نحو إسماعيل، فوق إسماعيل، ووقف الرجال، وتصافح الرجلان، ثمّ تعانقا.

- عفيا ابن اخوي «قالها الحاج، وأردف الرجال» وفي الحوش وصل صوتا سالم وجمعة يتناقشان في بذار القطن قبل أن يصلا الباب.

- تأخرنا؟

- الچشچ راح يستوي

وضحك الجميع، وأدرك إسماعيل أنّ هذا تدبير مسبق، اتفق عليه وجهاء القريتين، درءًا للفتنة التي ستقضي على الأواصر الاجتماعية بين القريتين، التي شهدت السنوات الأخيرة أكبر نسبة تزاوج بينهما.

لم تكن الملاعق لتكفي ها الجمع الصباحيّ المفاجئ، فأرسلت الزوجة إلى أمّ عناد تطلب ملاعقهم، وذهبت إلى العكّة تخرج سمنًا يكفي لوليمة عاجلة.

- لسّع السالفة ما انتهت، ويلاد صبحي يريدون الگاع.. ما عندهم أرض غير هالـ عندك، ويعطونك حگّها.. شگد ما دفعت يرجعلك.. طبعًا برْضاك.

أطرق إسماعيل، وأدرك الورطة التي أوقعته فيها شهوته لتلك الوجبة، ولعن الكشك وساعته، ولكّنه أدرك أنّ ابن صبحي يستطيع أن يكسب القضية وأن ينسف «الأصول» بجرّة قلم، ومن الأفضل أن يخلص من «الضرس وألمه» فهزّ رأسه:

- الـ تشوفونو.

واستدرك جمعة وقد اطمأنّ أنّ سيفطر كشكًا.

- ما تكصّر يا ابن العمّ.. بس يا جماعة «ثمنْها في زمنْها».

ولم يجد الحاجّ مناصًا من الانصياع لطلب «راعي المصلحة» الأشهر في الديرة، والتفت إلى المرأة في الزاوية:

- ولي يمّاا.. والله جعنا.

وتبسّمت المرأة، تبسّمت من كلّ قلبها، ومدّت أمامهم سفرة خيش كبيرة، وضعت فوقهما صحنين كبيرين، مملوءين بحساءٍ أسمر تعلو كلّ منهما كرة من السمنة الشهباء.

[22]

«وتسألين لماذا أحبّ العطشانة يا بدريّة؟

ولم تسألي لماذا تحبّني؟ بعد سنتين من الغياب، يا شجرتي، بل يا بستاني، يا فانوس لياليّ الطويلة، كلّ هذا الغياب تعينني عليه العطشانة، بسؤال العجوز جارتي كلّ يوم، وهي تناديني محموووود (دون استاز) فأشعر بشيء غريب، كأنّ جدتّي قدرية ما زالت على قيد الحياة، تناديني كي أشتري لجدّي سعدو شيئًا من الدكّان، أو لتعطيني لفّة دبس، أو لألضم لها الخيط.

جارتي العجوز أمّ عناد، ومنذ أن بدأت تصنع الزبدة تخصّني بـ «دُرم الزبدة» تلك اللفّة الغريبة التي تلفّ فيها زبدة مع السكّر برغيف خبز صاج. أعترفُ لكِ أنّني لم أستسغه في المرة الأولى، ولكنّي صرت أنتظر السابعة والنصف صباحًا، وأنا أسمع صوت آلتها العجيبة «الشچوة» تهزّها من دون تعب، وهي تغنّي غناء غريبًا، كأنّها تبكي به راحلين عن الدنيا. وصارت ساعة الصباح مقترنة بنشيد أمّ عناد، المرأة أخت الرجال.. وحين أنطلق إلى المدرسة وقبل أن أسكب الشاي تكون خالتي العجوز قد نادت: «محموووود.. عَجَل ما تفطر».

أمس يا بدريّة، وصلت المدرسة وكان الجوّ باردًا، والأطفال يسندون ظهورهم إلى الجدار مقابل الشمس، وكانوا يردّدون:

الـ يكّف على شمسي
لا يصبح ولا يمسي
هين عود وهين عود
وادفنو بين الاهود

فينتبه الأولاد الذين سدّوا عين الشمس عن زملائهم، ويبحثون عن مكان في «المشراكة» وينتظرون عذولًا يسدّ عنهم عين الشمس ليوبّخوه، ولكنّي تذكّرت الفيلسوف ديوجين الزاهد القانع حين وقف أمامه الإسكندر وقال له اطلب: فقال أريد منك أن تبتعد عن شمسي. هؤلاء يا بدريّة قانعون، ولا يريدون من الحكومات غير أن يبتعدوا عن شمسهم. حين يغنّون تحسّين أنّهم انقطعوا عن العالم، وحين تأتيهم المواسم يبحثون عن أسهل طريقة لتفتيت ثرواتهم البسيطة.

أوّل ما تعيّنت في هذه القرية النائية، أظلمت الدنيا في وجهي، وأنا أرى زملائي وقد تعيّنوا في قرى قريبة من الرقّة، أو دير الزور. وتذكّرت كلمات عمّي حسين الذي حشا حقيبتي بكتب قرأها في شبابه، وقال لي أنت ابن ديب البيطار، الرجل الذي حارب الفرنساوي «خليك قبضاي»، ولكن يا بدريّة.. ليالي الغربة طويلة، وأنت رحلتِ، وأنا أتداوى الآن بالعطشانة.

أوّل ما جئت عاقبت طلابي لأي سبب ممكن: عدم كتابة وظيفة، نظافة، ضحك من دون سبب، مشاجرة.. أيّ شيء. وأنا أتندّم على ذلك الآن.. أهلهم يقولون لي: «لكَ اللحم وليْنا العظم». كنت أراهم عجينة بشرية آتية من قرون بعيدة، عجينة غريبة من غبار تاريخ عرفته في الكتب، أولاد بثياب قديمة، وقد يأتيني أحدهم حافيًا، فتيات يقضين نصف اليوم على ظهور الدوابّ لجلب الماء، أمّهات يستيقظن قبل شروق الشمس، ويعملن بلا كلل أو ملل، رجال صابرون على مصارعة الطبيعة، والجميع يبتسم، ولا تغادر شفاههم كلمة «الله كريم». ولكنّي عشت الحياة كما هي هنا. وأشفق الآن من لحظة فراق طلابي، وأهلهم. ها هو آذار يكتب اسمه على صدر التقويم، وعلى السبورة السوداء. ومن يومين رأيت حسن

عريف الصــفّ، وقد كتب على الســبورة «بآذار تطلع الحيّة من الغار»، فسألته لماذا كتب هذا، فأجاب ببراءة ودلال: يعني لازم نطلع رحلة.

ولكن ماذا عنكِ الآن، وأنت تقضين العام الأوّل بعيدةً هناك؟

[23]

- خضّور ألّا يبّوس.
- يبّوس.

وبصق سليم على أحد وجهي الحجر المدوّر الصقيل، ثمّ رماه فوق، وهبط الحجر على وجهه اليابس، وفرح حمّادة، وخطف القرص الحجريّ الذي جاءت به أخته من الفرات قبل يومين، كي يلعبوا به «الربزة».

منذ أيام، خطّط الأولاد ملاعب «الربزة» أمام المدرسة، وأمام البيوت، يأتون بقطعة معدن حادّة، أو ضلع سحّارة مرميّ، ويخّططون به خطين متوازيين، يغلقونهما على مستطيل صغير، يقسّمونه ستّة أقسام، ومن خارج المستطيل يرمي اللاعب الحجر بيده إلى القسم الأوّل ثمّ يلحقه وهو يحجل على قدمٍ واحدة، فيقذف الحجر بقدمه، ويكون قد اجتاز الصفّ الأوّل، فيرمي بالحجر إلى الحارة الثانية، ويذهب إليها قفزًا على رجلٍ واحدة، وهكذا حتّى يصل المستطيل الأخير، ويرمي الحجر بكلّ قوّته وراء الخطّ.

- ع الخطّ، الحجرة ع الخطّ..دوري.

واستعاد سليم المبادرة، واجتاز الصفوف الثلاثة الأولى بمهارة، وأمسك بطرف الحجر يريد رميه، ولكنّ الحجر تدحرج قليلًا إلى الأمام..

- ايييييه رحت ع الخامس، گبل ما تنجح بربّوع؟

وهزّ حسن الجرس، هزّه بعنف فوق الطلاب اللاعبين، وكأنه يعاقبهم، فاتفق الطفلان أن يكملا في الفرصة القادمة:

- آني وصلت رابع، وانت لسّعك بثاني.

ووافق حمّادة حزينًا، ونظر المعلّمان اللذان تمشّيا في الساحة، مستطيلات «الربزة» المقسومة إلى ستة مستطيلات صغيرة، وتناقشا في مسألة النجاح والرسوب، والطلّاب الغائبين، والطلّاب الذين سيترفّعون إلى المرحلة الإعدادية، فيما انحشر الطلاب في غرفتين ينتظرون الدروس الجديدة.

لم تتجّهم سماء آذار، وأحسّ الناس بالقلق، وارتفعت درجات الحرارة على غير المعتاد، وأخرجت الأمّهات البسط واللبابيد ونشرتهنّ فوق الجدران، وانفطمت الخراف الكبيرة، وباتت ترعى مع أمّهاتها، وعاد الحجّاج إلى أهاليهم، بعد رحلةٍ طويلة. وفي المساء كان دحّام يغنّي أمام أغنامه:

حجّاج راحـ (م) ع البيت* مسباح ما جابوا لي.

ما ادري المحبّة من الله* ما ادري سحر سوّوا لي.

كان الشيخ يلبس ثوبه التركال المخطّط، وخاچّيته الشقراء الشفّافة، مؤطّرة بحبلين رفيعين من القصب يعلو الرُّدنين الفضفاضين، وينتظر جمعة وسالم والحاج علي، كي يذهبوا إلى النافعة مهنّئين بعودة شعيب العبّود من الحجّ، واستبدّ الفضول بإبراهيم، الذي رأى من أناقة أبيه ووسامته واهتمام أمّه:

- يابا... أريد أروح معاك.

- شـ مودّيك يا ابني. قالت الأمّ، وهي تجلب للشيخ منديلًا قماشيًّا مطويًّا بعناية، ودمعت عين الولد دون أن يجهش، ونظر الأب إلى ابنه بإشفاق

- لا لا يا الله البس.

وقفز ابراهيم عاليًا، واتّسعت ابتسامته.

- يا شيخي.. خايف ع الوليد من العين.
- اگري المعوّذات عليه گبل ما نطلع... يا مرة.. «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

وجاء الرجال بتراكتور جمعة، وقد حملوا وراء الجرّار كيس سكّر، هدية الحاجّ الجديد، ونادى جمعة الشيخ.

- تعال عندي ع الكرسي، وجلس الحاج على الرفراف اليمين، وسالم الصطاف على الرفراف اليسار، ونظر إبراهيم قلقًا، فأجلسه الحاج بجانبه:
- خالك سالم سمين، ماخذ الرفراف كلّو، تعال عندي.

لم تكن سماء بيروت كسماء العطشانة صافية في تلك الأيّام من آذار. كان مطرٌ زاعق، وشديد، ألجأ العمّال إلى الجلوس في غرفهم أيّامًا وليالي، جعلت مصطفى يستعيد فرصة قراءة رواية مترجمة اسمها «بائعة الخبز»، ويزور عبّود في المساء. لم يكن زواج فضّة ليمرّ سهلًا على مصطفى، ولكنّه كبر على جرحه، وفكّر كثيرًا، أنّه لم يصارح أحدًا بحبّه للبنت غير أمّه قبل أيّام من تمرّده، بل لعلّ ذاك البرق المفاجئ الذي نبت في صدره كان سبب تمرّده.

حين قال له عبّود إنّ فضّة قد تزوّجت اربدّ وجهه فجأة، وأحسّ باحتقانٍ شديد. ضيفه عبّود سيكارة من علبته الورقية فلم يردّه. حين تركه عبّود ظلّ يومًا كاملًا لم يأكل شيئًا، وفي اليوم التالي قرّر أن يدخّن.

بعدها بأسبوع دعاه عبّود إلى عمل إضافي صغير، يساعده في «زريقة» غرفة لخواجا لبناني أوصله إليه بلّاط فلسطيني. كان جون مغربل يدخّن بشراهة من غليونه ذاك الأصيل وقد اعتمر طاقية واسعة غريبة، حين سلّم عليه ريفيّان بسيطان، ولم يكن الرجل في وارد الاهتمام بهما لولا

حاجته الماسّة إلى تجهيز الغرفة الجديدة بالسرعة القصوى. ولم يستدعِ الأمر كثيرًا من الوقت، أعطاهما ورقات جديدة ملوّنة مكتوب عليها 100 ليرة لبنانية، فذهبا إلى السوق واشتروا الإسمنت والرمل، وعادوا.

بقي عبّود ومصطفى يومين، مساء السبت، ويوم الأحد كاملًا، ووجد الخواجا عملًا متقنًا، فشكرهما، وشاهد مصطفى ينظر إلى الكتب في الصالة فقال له:

- تعرف تِئْرا.
- مصطفى خاتم القرآن.. قال عبّود بعد صمت مصطفى الطويل.
- خود ءراها. روايي حلوي

ومدّ مصطفى يده بامتنان، وقرأ العنوان «بائعة الخبز» وتعثّر في قراءة اسم الكاتب الصعب، ولكنّ العنوان استهواه.

قرأ مصطفى: «كان ذلك في عام 1861» وحسب أنّ أحداث الرواية وقعت قبل أكثر مائة عام، ثمّ أكمل: «وفي يوم من أيام أيلول | سبتمبر القاسية الباردة، وفي الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم وفي شارع ألفورت في مدينة الفورنيل» وأحس بوطأة الكلمات الغريبة، ولكنّ السياق خفّف عليه فهم المعنى، وراح يرسم المرأة المسكينة «كانت امرأة تسير وعليها ثياب الحداد السوداء» وتذكّر عجائز العطشانة المتّشحات بالسواد.. فصدرت منه تنهيدة طويلة، ومدّ يده إلى سيكارة أخرى، ثمّ استغرق في القراءة.

رنّ رنّ يا جرس

حوّل واركب ع الفرس.

ظلّ سليم يركض حول دائرة الطلاب الجالسين في الباحة، وكأنّه يحجل على إيقاعات الحوارية الصاخبة، ليختار طالبًا ساهمًا يضع وراءه

المنديل، ولم يجد ســاهمًا في ذاك الصــباح البارد غير إبراهيم الذي عاد متعبًا من رحلة الأمس وقد حضــر المولد الذي شــارك فيه أبوه الشــيخ، وشرب من ماء زمزم، وأكل تمرة كبيرة، وشاهد الحاجّ شعيب يتلقّى التهاني من وفود مختلفة ضــاق بهم المكان، حتى إنّه جلس في حضــن أبيه، وقد حدّثهم في الصــباح عن رحلته المظفّرة، وعن الآلة العجيبة التي تعرض صــورًا غريبة للكعبة المشــرّفة ذات الثوب الأســود. ولكنّ إبراهيم غفا مرتين، وها هو الآن شارد الذهن.

رمى سليم المنديل خلف إبراهيم، وركض، فلم يأبه، ولم يركض خلف زميله، وصرخت عليا مستنجدة الأستاذ الذي يدرّس صفًّا آخر:

- استاااااز ... إبراهيم.

[24]

- عليچ.. سـليييچ.. صـابووون.. بيلووون. وأكمل «البيّاع» قائمة بضـائعه، وأعاد ثانيةً، فقام إبراهيم من فراشـه إلى الشـبّاك وقد انتابه الفضول لمعرفة جديد «أبو خيريّة»، ولكنّ أمّه نهرته برفق:

- لسّعك مرضان يا إبني.. ردّ على فراشك.. الله يرضى عليك.

وعاد إبراهيم، وقد شـاهد البيّاع الذي ذكّره بالـ«حنفيش» في قصّـة غيدا، بشـعره الكثّ الأشـعث، و ثوبه المهترئ، وأظافره الطويلة، وسـمع الصوت ثانية وهو فراشه:

- عليچ.. سليچ.. صابوون.. بيلوون.

في ذلك الصباح الناتئ في جبهة آذار، وجّه أبو خيريّة كديشته العجفاء كي تقود العربة صـوب ذلك الحيّ من العطشـانة. يسـلك البيّاع طريقًا لا يحيد عنه، يبدأ بقرى الزور من الغرب عند المركز، ويمشـيها قريةً قريةً وحيًّا حيًّا، ويمر بالبيوت الوحيدة في الحقول، والتجمّعات الصـغيرة، حتّى إذا أتمّ جولته، أحصـى أرباحه، ثمّ عاد ثانيةً إلى المركز، وربّما إلى حلب، فاشترى أغراضًا جديدًا تناسب حاجات الناس، وعاد من جديد.

وسمع إبراهيم صوت جلبة، وأصواتًا تسأل البيّاع عن حجر الشبّ، والجايفة، ودهون الگطن، وسـلك القنويچ، وسـمع مقايضـات العجائز والفتيات مع البائع؛ حجارة بيلون بقليل من السـمنة، أو صـحن بافون ببضع بيضات. والبائع يزيد وينقص، ويطالب بدينٍ قديم، والنساء يضعن في أوعيتهن المنثورة في العربـة الصـوف والسـمن والبيض. غير الفتيان الصغار الذين جاؤوا بفرنكات من ذات العشرة قروش والخمسة قروش، وطلبوا «الكعك الأحمر» أو تلك الحلوى المغطاة بورق قصدير ذهبيّ وكأنها

ليرات ذهبيّة، وعاد أخوا إبراهيم الصـــغيران إلى البيت وفي يدهما علكة في شــكل إصـــبع طويل ملفوفة بورق ملوّن أعطيا إبراهيم واحدة منها، ولكنّ إبراهيم وقف ثانيةً مع نسمة الهواء التي جاءت من الشبّاك محمّلة بروائح غريبة فشـاهد الجمع المحتشـد حول العربة المچدّرة بالخيش والخشـب، واقتربت منه عجوز متهلّلةً:

- وال إبراهيم.. شلونك اليوم؟

ولم يكن إبراهيم يدري ما الذي جرى له بالأمس. قال له أخوه الصـغير إنّ طالبين جاءا يقودانه، وأنّ أمّه صرخت، متذكّرة مخاوف الأمس، ولكنّه الآن بخير، وقد جاؤوا له بالبرتقال وأكل ثلاث «مردقانات» وحده، ثمّ نام. ســمع الأســتاذ اســتغاثة عليا، فركض نحو طالبه الذي يذكّره بنفســه، ووضـــع يده فوق قلبه، فوجده ينبض، فاطمأنّ، ثم حمله إلى الصـــفّ، ومدّده على الطاولة، ورشّ على وجهه برفق قليلًا من الماء، فتحرّك رأســه، ثمّ فتح عينيه. وحين صحا تمامًا طلب من اثنين من الصـفّ السـادس أن يأخذاه إلى بيته.

كان إبراهيم متعبًا من ســفر الأمس، والســهرة التي اســتكملت بحفلة مولد. ضـــاق المجلس بالرجال، وطلب الشـــيخ منهم أن يفتحوا الباب والشبابيك، ضاق إبراهيم بقلّة الهواء، والضجيج، ولم يكن من العادة أن يظلّ حتى منتصف الليل ساهرًا، كان ينام مع أذان العشاء، ولكنّه بالأمس كان مأخوذًا بالفضـــول، وغرائب الحديث عن بلادٍ جديدة، وبشـــر جدد تحدّث عنهم الحاج شـــعيب، ناس من الســـودان ونيجيريا واليمن. والآلة العجيبة التي شاهد فيها الكعبة الشريفة والحجر الأسود.

- آني گلت لك.. لا تاخذو.

- جّلة نوم وتعب.. بعد شوي يگوم مثل الحصان.

وتذكّر الشيخ حديث الأمس، وتذكّر إبراهيم في المولد وهو ينشد معه:

صلّوا يا أهل الكمال

ع النبي باهي الجمال

فانفرجت أساريره، ونظر إلى ولده برقّة وانكسار، وكادت دمعةٌ غادرة تغلبه، فتجلّد وقاوم، وشدّ الغطاء على الولد النائم. حين غادر البيّاع، وهدأت الجلبة خارج البيت، قالت الأمّ لإبراهيم:

- تاكل مع اخوتك.. ألّا تستنّى الحليب تا يفور. ونظر إبراهيم إلى إخوته مبتسمًا وقال:

- استنّى الحليب، ثمّ ضحك.. واستدرك أخوه الصغير وهو ينظر إلى أمّه:

- بسّ الحكاكة ليّة.

في خطبة الجمعة، دعا الشيخ أهل العطشانة إلى الاستغفار وعمل الخير والاستعداد لصلاة الاستسقاء في صباح الغد، وفي المساء لم يبق بيت لم يتقرّب إلى الله بطعامٍ مختلف. ذبح جمعة نعجتين حائلين سمينتين، ودعا إلى الوليمة الصغيرة رجال العطشانة، وذبح سالم الصطاف «گرگورة» ووزّع لحمها على الجيران، وذبحت طيور الدجاج في بيوت الفقراء، وشرب إبراهيم مرقةَ دجاج لم يذق أطيب منها. واقترب أهل العطشانة من بعضهم، وتطلّع الناس إلى وجه السماء الصافي متضرّعين:

- يا الله.. يا الله.

في الصباح الباكر قام الجميع إلى أوعية الماء وتوضّؤوا، لبس الرجال فراءهم، وساقوا أمامهم مواشيهم، وقادت العجائز أحفادهنّ غير بعيد عن ساحة الصلاة في أرض البيادر. جمع الشيخ الناس ثمّ صفّهم صفوفًا،

وقلب عباءته، وطلب من الناس قلب عباءاتهم، فتعجّب إبراهيم لمنظر الفراء المقلوبة على وجهها.

صلّى الشيخ وكأنّه يصلّي صلاة العيد، حين كبّر أكثر من مرّة، وقرأ سورة الأعلى، وكان إبراهيم قد ألف قراءة الشيخ للسورة في خطبة الجمعة فحفظها، وقرأ الشيخ في الثانية، آيات مهيبة الوقع: «هل أتاك حديث الغاشية* وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ* عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ* تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ* لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ* لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ» وأحسّ إبراهيم بشيء غامض ومخيف يتعلّق بالمطر، وتهدّج صوت الشيخ، وسمع صوت عجوزٍ يجهش. وحين أنهى الشيخ الصلاة، وقف يخطب في سرب الحمام الأبيض ساكنًا فوق أرض البيادر، فيقول كلامًا عن الخطايا والذنوب والبهائم والعجائز والأطفال.

اختفت الحمامات البيضاء، وفرغت أرض البيادر، وغادر الرعاة بدوابّهم إلى ظهور التلاع القريبة، وأخذت العجائز أحفادهنّ إلى البيوت، وكانت أمّ عناد تصنع «عاجة» كبيرة، اثارت فضول نجمة، وقالت لجدّتها «شني هاذي حبّاب» فجاوبتها العجوز وهي تثبّت نظرتها بحفيدتها وتبتسم:

- هاذي أمّ الغيث.

في المساء جمعت أمّ عناد فتيات القرية وأطفالها، ودارت القرية، حاملة معها تلك الدمية الغريبة المعصّبة بهباري أسود، والأطفال حولها، وسمع إبراهيم الأولاد ينشدون:

أمّ الغيث يا ريّا
عبّي الحَوَايا ميّة
والتعطينا بالطاسة
أمّ حجول (ن) رقّاصة

والتعطينا بالغربال
يصبّح ولدها خيّال

وركض إبراهيم يلحق الجمع، وذكّرته أمّه أن يلبس حذاءه، فامتثل لها متذمّرًا، وانطلق مع الجمع، يشاهد الجوقة الصغيرة تغشى البيوت، وتخرج بحفنات من الحنطة والعدس والذرة وكثيرًا من الدعاء، وتعود إلى بيت أمّ عناد التي وعدتهم أن تعدّ «السليجة» وتوزّعها عليهم في الغد.

عندما عاد إبراهيم كان متعبًا، ونال حصّته من لوم أمّه التي علّمت أولادها وهم يستعدون للنوم عبارة يقولونها ليلة الأحد: « يا أحد يا ما حود، شوّفني سْعَدي من بين السعود». وتمدّد إبراهيم، وأغمض عينيه ونظر في سبورة المستقبل الغامض، وهمس: «يا أحد يا ماحود، شوّفْني سْعَدي من بين السعود»، ثمّ نام.

وفي الأحد ذاته، كانت عطلة مصطفى تأخذه إلى روايات جديدة، ومجلّات أعطتها له ابنة الخواجا حين أخذه عبّود إلى بيت الخواجا في الجرد. كانت تيودورا ابنة الثلاثين طلبت من عبّود أن يرمي عددًا من المجلّات القديمة: «الصياد والشبكة والموعد، والعربي». كان هذا سعد مصطفى الذي نازعه زملاؤه النظر إلى الصور التي فيها، ولكنّ مصطفى ذهب بعيدًا إلى قصص الفنانين والسياسيين، ثمّ راحت مواضيع مجلّة الصياد تأخذه إلى عوالم جديدة.

مضى آذار يحمل لياليه البيضاء، وشموسه القاسية، وكاد الناس يفقدون الأمل، وتحدّثوا عن ضمان أراضٍ للرعي، وقيّموا ثمن الدونم الواحد. في اليوم الأخير استيقظ الناس على صباحٍ غريب نديّ، وغيوم متجهّمة. وركض أطفالٌ منشدين «مطر مطر عاصي، طوّل شعر راسي»

ونهرتهم النسـاء كي يعودوا خوف الصـواعق الربيعية، وترك الناس الأبواب مفتوحةً، وكان يومًا مشهودًا في تاريخ القرية.

[25]

حسن ضيّع دبّوسو
گام يلبلب عاروسو
عاروسو بنت عمّو
شربت حفنة من دمّو
دمّو دمّ الحَصَاني
آخ يا عروگ لسانى
شدّوا لي على حْصاني
لانحر هلي وعمامي
وعمامي شرجي وغربي
ومناحرين الوردِ
والوردِ همّو همّو
همّو گصيرة عمّو
ألفلفها واطويها
واطلع شبابـ ن بيها
واطلع بنيّة بطّة
تلعب بگريص الحنطة

لا تفرغ نجمة من ترديد نشـــيدها الجديد حتى تعيده وهي تركض وراء عليا وأخواتها الصغيرات وهن يلعبن في الحوش. خفّ المطر بعدما انتصف نيسان، ومنذ يومين قاسمت الشمس الغيوم حصتها من السماء، وملأت

الخبّازى والدردار أرض البيادر والمراعي القريبة، وبدأت نساء العطشانة يمخضن الحليب.

يسمع إبراهيم صوت ارتطام اللبن بجدار الشِّكوة في البيت وفي بيت جدّته، صوت بهيج غريب تندغم فيه الشين بالقاف بالألف، صوت لا تترجمه الكتابة. وما تلبث أمّ عناد تهزّ شكوتها حتى تداعبها حفيداتها:

- خضّي الشچوة خضّيها* واعطي الزيدة لراعيها

والعجوز تبتسم، وتعرف أنّهم ينتظرون الزبدة، فأحضرت القدر الكبير، ثمّ تنهض وتفرغ وعاء الجلد في القدر، فيملأ اللبن القدر وقد طفت فوقه حبيبات صغيرة تجمّها العجوز بيدها ثم تضغطها حتى تصنع منها كرة كبيرة. وتكون كنّتها الصغيرة قد خبزت خبز اليوم، فجاء الأولاد بأرغفتهم طالبين من حبّابتهم أن تلفّ لهم «درم» الزبدة.

- استنّم التالي.

ولكنّ الأولاد لم ينتظروا وركضوا خلف نجمة، مكتفين بأرغفتهم الملفوفة على الزبدة المرشوشة بالسكّر.

في الجرد.. الربيع يحكي، هكذا تقول تيودورا، فيوافقها عبّود، ويبقى مصطفى صامتًا، متذكّرًا نيسان في براري الفرات، البراري التي تحكي وتغنّي أيضًا، مشهد القندريس في السفوح، الورد الأصفر، شقائق النعمان، الكعّوب والحيلوان..

- وين سارح يا مصطفى؟ قالت ديورا، فأحس مصطفى بخجل شديد، وضحكت تيودروا:

- خجلان منّي؟

دخلت تيودورا عامها الثاني والثلاثين، أنهت دراستها الجامعية منذ سبع سنوات. سافرت بعد تخرجها إلى البرازيل، وبقيت هناك سنتين، ثمّ

عادت بعد زواج فاشل. تعمل في بيروت مترجمةً في مؤسسة إعلامية. وقد اقترب منها الريفيّان لأنها لم تتعالَ عليهما، كما هي عادة الخواجات. ينتظر مصطفى يوم الأحد، ليغادر فجرًا مع عبّود نحو الجبال، يقطعان المسافة في أكثر من ساعة، والسيارة تصعد وتهبط دربًا كثير الانعطافات، يعملان في المزرعة بأجرة مضاعفة (أوفر تايم)، ويعودان مساءً إلى بيروت. ليعود مصطفى برواية جديدة.

عادت الورّادات من الوِرد، وأفرغن حمولة الماء، ولم تكد الشمس تميل نحو الغرب حتى اتّجهت قافلة الدوابّ نحو الشمال. نحو المغائر يجلبن «الحوّار» لإعادة الروح إلى البيوت، وكان الشيخ على عجلة من أمره يريد الخروج إلى البريّة:

- معزوم عند حجّ حميدي.. ويمكن أبات.
- راح أغرّي الدار. قالت أمّ إبراهيم، ولم يجرؤ إبراهيم على طلب مرافقة أبيه، ولكنّ الأبّ رأى فضول ولده:
- ابراهيم.. تروح معاي؟
- بكيفك.
- البس حذاك.

وقفز إبراهيم، فيما أسقط في يد الأمّ المتوجّسة، ولكنها اعترضت:

- خلّي عند اخوتو.
- باچر عطلة جيبي بنت اختچ تظلّ عندهم.

وفي الحوش كانت السيارة تعلن عن وصولها بزمّور عالي الصوت، فخرج الشيخ ولحقه إبراهيم، وصرخ الصغار باكين. وفي الطريق كان إبراهيم مأخوذًا بمشاهد لم يألفها في العطشانة، والشيخ والسائق والرجال في حديثٍ لم يسمع منه إبراهيم شيئًا.

حين وصلوا كان الحجّ حميدي في استقبالهم، في قريةٍ قليلة البيوت، ومضارب تحيط بها، وقطعان متفرّقة تختلط بينها أصوات ثغاء الماشية ورنين أجراس المراييع. واحتضنت العجوز عمشة الخلف إبراهيم وقبّلته، فزاد فرح الصبيّ بالمكان الجديد.

نثرت أم عناد الحجارة والنساء يضحكن حولها:

- جدامچ طريق طويل، وهاذي الحجرة مرة جديدة، راح يتجوز عليچ.. ديري بالچ يا مصخّمة. وضحكت النساء في تلك «العصير الزغيرة» وهنّ ينظرن إلى فاطم العلي التي ضحكت بصوت أعلى. لم تكن النساء على هذا القدر من المرح مثل ما كنّ عليه اليوم، وهنّ يتشاركن الشاي أمام البيوت، ويتفاكهن في «ضرب الفال»، وينظرن إلى الأطفال وهم يلعبون؛ فمعظم أعمال الربيع تقضى صباحًا، فلم يعد هناك علف لعشاء البهائم، ولا إشعال مواقد النار.

- شـ مسوية عشا اليوم؟

- كعّوب جانا طعمة من البريّة وسلاگ خبّاز سلگنّو البنيّات اليوم.. وانتِ؟

- حويلك.

ولم تكن عليا تحبّ الحويلك، كرات العجين المطبوخة باللبن، فتتمرّد على العشاء، وتتدارك أمّها الأمر فتضع لها دبسًا جانب الخاثر، أو تخصّها بكأس من الحليب، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجدّ سطّام الذي يصرّ على «عيش اللبن. »

وكان مساءً صافيًا، تخلّلته غيوم عابرة أضاءت وجه الجنوب الداكن، وتوجّس أهل العطشانة، وقالت أمّ خميس وهي تنتظر ابنها خميس: «الله يستر الرعيان».

وذابت الغيوم، وصـــفا الغروب حتّى كأنّ الشـــمس لم تغب، ولكنّ فتًى يركض من جهة القبلة أفسد المشهد:

- يا عروووب الحگ م.. دحّام ضربتو الزنزلة.

[26]

- لا أحبّ الموت يا بدرية، ولا أحب رؤية أثره في وجوه الأحياء، ولكنّي رأيت بالأمس أثره في أهل العطشانة، شيء يجمع بين الخوف والفجيعة والحزن والدهشة، شيء لا يقاوم. نعم، رأيت جدّي سعدو البيطار عندما مات، كنّا نعرف أنّه مشرف على النهاية، وأنّنا نبذل كلّ الجهد في أن نخفّف آلامه، كنّا حزينين وحسب، راضين مستسلمين مستكينين. ورأيت هنا كيف مات جاسم العلي، الجميع توقّع هذه النهاية. ولكن بالأمس، بالأمس يا بدرية كان للموت أثرٌ راعب مجنون. فقد الشباب عقولهم، وضرب بعضهم رأسه بالجدار حتى نزف،ولطمت أمّه وشقّت ثوبها، وأمسكت بها أمّ عناد تذكّرها بالحرام الذي لا يجوز فعله، وبكى الأطفال، وبكيت.

كان دحّام وردةً مهملة تفتحت في الربيع، يلعب الكرة، ويعزف المزمار ويبكّي الربابة، ويغنّي العتابا والمولّيا، ويجيد رعي الماشية، والدفاع عنها في الشتاء حين تجوع الذئاب، وكان أمينًا. الحاج علي قال إنّه كان يعطيه الفخاخ ليصيد ويقاسمه الصيد، فلم يلحظ عليه أنّه خبّأ عنه زرزورة أو عصفورًا، وكان محبوبًا أيضًا. البنت التي تحبّه دلّت على نفسها في الجنازة، صرخت بأعلى صوتها:

- دحّاااااااااام.

أمس، كنت أمشي مع زميلي، ذهبنا شمالًا حتى صعدنا التلاع، عادت الفتيات يحملن على دوابّهنّ ترابًا أبيض يسمونه «الغريان» ليكلّسوا به الدور، وبقينا هناك، نرى العطشانة تتوسّد الغروب، وتولّي وجها صوب الفرات، حين بدأت تمطر جرينا بسرعة نحو البيوت، ووصلنا مع انطفاء

عين الشمس، وما كدنا ندخل حتى رأينا الناس يركضون نحو الجنوب، فركضنا معهم خوفًا من شجارٍ، أو جريمة قتل تستدعي النجدة. لم نلحق، جاؤوا به إلى البيوت وسجّوه على فراشٍ. نالت الصاعقة من ظهره، ربّما صعقت القلب فمات دون مقاومة.

لم نرَ على وجهه ندبة أو علامة، كان جميلًا، ونادته أمّه كي يردّ عليها، فهاجت الناس وبكينا جميعًا، وجاء الدكتور عمر بسيارة خاصّة، قرّب ضوء اللوكس من دحّام، قلّبه يمينًا ويسارًا، وشاهدنا أثر الصاعقة على ظهره، ندبة كأنها شجرة، انرسمت على جلده الغضّ. ربّما لأنّه كان يحمل خنجرًا، وربّما لأنّه لم يلجأ إلى بيت كما فعل رفاقه.

ولكنّ دحّام مات.

نفد حبر القلم، وأكتب لك الآن بقلم رصاص، بريته جيّدًا بسكين صغيرة كان جدّي يقشّر بها التفّاح. غدًا سأعيد الطلاب إلى بيوتهم، وسأشارك في جنازة دحّام، ومن قال إنّ أحدًا سيداوم في الأساس. ولكنّي أشفق من أثر الموت في وجوه الأحياء، وأشفق من موت أحبّائي أيضًا.

بعد يومين سيأتي أيّار، وسنجري الاختبارات للطلّاب خلال أسبوعين، وأوزّع عليهم «الجلاءات»، لم أحبّ أن يكون وداعي للعطشانة هكذا، أتركها كسيرة القلب، وقد أودى الموت والغربة بشبابها. ولا تنسي أنّي تعلّقت بصغاري الأشقياء عليا وحمّادة ونجمة وسليم وإبراهيم، ولاعبي الكرة، والشباب الذين يسهرون عندي ويلعبون الصينيّة والطرنيب..

الفراق صعب يا بدريّة، وأهل العطشانة كسروا قلبي. اليوم.. قبل أن أعود إلى البيت، جاء ولدٌ صغير يستدعي أباه، لأنّ أمّه تعاني المخاض، وقبل أن يتّجه إلى البيت، جاءت فتاة على عجل:

- عمّي.. عمتي جابت.

وصدر صوت من عجوز بعيدة:

- ش جابت خيتي؟
- جابت وليد، وتهلّل وجه الأب، وصاح بصوتٍ عالٍ
- هذا دحّام .. راح اسمّيه دحّام.

وتكسّرت مشهدية الحزن إلى مشهديات صغيرة، تمنح المفجوعين شيئًا من العزاء، ووجدها الشيخ فرصةً ليقول شيئًا مختلفًا:

- سبحان الله، دحّام ردّ.

ولكنّه جرحٌ غائر يا بدريّة، وأنت تعرفين أنّي لا أصدّق الموت، ولا أصدّق ألاعيبه. فكيف أصدّق أنّك متِّ، وأنا أرسل إليك هذه الرسائل كلّ يوم؟

الأخيرة

الثاني من أيّار، قرأ إبراهيم في التقويم: إن أمطرت كان لؤلؤًا؛ فسأل أباه الشيخ عن اللؤلؤ، وتساءل: أيمكن أن تهطل حبّات اللؤلؤ هذا اليوم؟ وراح ينظر إلى السماء الصافية لعلّه يظفر بكرة لؤلؤ ثمينة، تباع بثمنٍ غالٍ كما قال الشيخ. وظلّ طول اليوم يراقب السماء، فيما كانت عليا تحمل سنّها الأمامي بعدما خلعه جدّها، وتنظر إلى الشمس ذاتها، وتردّد كلماتٍ ألقتها عليها جدّتها:

يا شْميْسة يا ضْحَيَّة

ردّي سنيناتي عليّة

أعطيتچ سنيناتي الزغار

واعطيني سنون كبار

وفي ظلال الجدران تجمّع عجائز يشحذون المناجل استعدادًا للحصاد، فالشعير قد استحصد، ولا يمكن انتظار الحصّادات الجديدة كما القمح.

تجمّع الشباب والفتيات في أرض جمعة العلي، نحو أربعين حاصودًا بمناجلهم، امتدّت أيديهم إلى الشعير النديّ، ومع ارتفاع شمس الضحى أخذ التعب منهم، ولكنّ هوّاش بدأ حداءً حماسيًّا، وجد صداه في النفوس والأيدي:

والحاصود شـ بدّك منّو

والطارود شـ بدّك منّو

عينك ع المثلي وامثالي

عينك ع الحارج بالتالي

وتقدّم خميس على منافسيه، وكان حمّادة يحصد في خطٍّ واحد، غير الكبار الذين يحصدون في خطّين فسبق من حوله، وساعدت وضحة الصالح رفيقتها خود التي بدا عليها الإجهاد، وعاد هوّاش إلى الحداء:

وان هلهلتي هلهلنالچ

صبينا البارود گبالچ

وبدأ يذكر أسماء الفتيات، ويأتي بقفلة تناسب كلّ اسم، ودبّت الحماسة في الحواصيد، ولم يشعروا أنّها العاشرة وأنّ خميس يناديهم على الفطور.

مدّ خميس السفرة، ووضع صحون الزبدة، وقدر اللبن، والخبز، والبيض، ولكنّهم صمّموا على التحدّي، فما كان من خميس إلا أن هدّدهم إن لم يتوقفوا سيلقي بالطعام، فصدرت ضحكات خفيفة ثمّ تعالت. وكان فرحٌ حقيقيّ قد تخلّق لم يعرفه الشباب منذ موت دحّام، ولكنّ لحظات الفرح انكسرت حين تقدّموا للطعام ومدّ هوّاش يده إلى الزبدة:

- دحّام الله يرحمو ... چان يحبّ الزبدة.

ومرّت لحظة صمت سالت فيها دموع على استحياء، ثم ارتفع صوتٌ بالبكاء، ولم يتمالك خميس نفسه فبكى بصوتٍ عالٍ. قبل أن ينهرهم سالم الصطاف:

- الله يرحمو.. الـ يحب دحام، يدعي لو الله يغفر لو.

في أيار ترتفع درجات الحرارة في بيروت، ويلمس أهلها أثر الرطوبة، فيستعدون لأيام أصعب، ويفرّ كثير منهم إلى قراهم في الجبال. وفي المساء حدث عبود مصطفى أن الخواجا يريد أن يذهبا معه إلى الجبل براتب أفضل من مكبس البلوك، هناك ليعملا في الأرض. فثمة قطاف وتعزيق

وســقاية. ووجد مصــطفى في ذلك فرصــة مضــاعفة للهروب من رطوبة المدينة، وقراءة الكتب والمجلات، ورؤية تيودورا.

حتى تيودورا نفســها لم تفهم ســبب انجذابها إلى فتى غرّ، يصــغرها بخمس عشرة سنة. وأعادت على نفسها السؤال، إن كان يشبه أحدًا مرّ في حياتها أيّام المراهقة، أم سلوك الشابّ الخجول، أم طبيعتها التي تنظر إلى الناس مجرّدين من اعتبارات الغنى والفقر والدين والطائفة؟ أبوها كان يقول لها: إنّ في عائلتهم دماءً عربيّة. هاجرت عائلة مغربل من طور عابدين قبل مائة عام، وكانوا مجاورين لقبيلة بدوية، يأخذون منهم اللبن في الربيع، ويعطونهم العنب في الصيف. وكان الخواجا جون يجدها فرصة في كلّ مناســبة يجد فيها إنســانية تيودورا العالية ليذكّرها بتلك القصــة البعيدة، مازحًا: يمكن أصلنا عربي!! فيضحكان.

في الظهيرة تعود القطعان الصغيرة إلى القرية، ويسمع العابر أصوات أجراس المراييع والجداء التي تحمل أجراسًــا صــغيرة وبعض الخرز، فيختلط الثغاء بصوت الأجراس، فيعرف الأستاذ محمود أنّها سيمفونية الظهيرة، ويكمل ترتيب جلاءات الطلّاب، وقد تناقش مع زميله هيثم بكور في أمر الناجحين والراسبين.

يكتب محمود بقلم الحبر تقدير الدرجات (جيد- وســط) بالأزرق، و(ضعيف) بالأحمر. ويتوجّس من حزن طلابه الراسبين في الغد، فيلتمس لهم ما ينجّحهم.

في الصــباح كانت الســيارة تنتظر المعلّمَين اللذين حزما حقيبتهما، وجاء الطلاب، ولم يســتغرق توزيع الشــهادات كثيرًا، وكاد المشــهد يمرّ بسلام، لولا تحية إبراهيم الحزينة:

- خاطرك أستاذ

ومدّ يده، فقبّله المعلّم، ثمّ بكى إبراهيم، وأرد المعلّم أن يواسيه، فتعثّر بكلماته، وبكى هو الآخر، وبكى صغارٌ آخرون، وزال خوفٌ مديد في لحظة الوداع، وتقدّم طلاب كثيرون إلى معلّمَهم. وطال انتظار السائق، فضغط على الزمّور ضغطتين طويلتين، وقبل أن يركبا جاءت أمّ عناد مسرعةً بعين دامعة:

- الله معاك يا وليدي.. لا تنسانا.. وقبّلت الشابّين، وودعها هيثم، ولم يقل محمود شيئًا.

«كانت العطشانة تبتعد شيئًا فشيئًا، حاولت أن أقول لسائق السيارة أن يتوقّف، وخنقتني الدموع، ونظرت بكلّي إلى الوراء، وتجاهلت حديث السائق عن المدارس والسدّ، كانت البيوت في حضن التلاع، محفوفة بالماشية وبعض الأشجار، تاركة المدرسة وحيدة في الشمال. وحين هبطت السيارة كانت العطشانة قد غابت تمامًا».

حين فرغ محمود من كتابة الفقرة الأخيرة كانت العاشرة في فندق النسرين في جبّ القبّة. تصفح محمود الدفتر وكأنّه أنجز بناء بيت، بناه لبنة لبنة، وهمس: لا تحزني يا بدرية: ها هي العطشانة معي. وعاد إلى الصفحة الأولى وكتب:

- إلى بدرية: القرية الخضراء في قلبي.

عيسى الشيخ حسن

كاتب سوري مواليد 1965م، مقيم في الدوحة.

شاعر، وروائي. درس الأدب العربي في جامعة حلب. حصل على جائزة عبد الوهّاب البياتي، والمركز الثالث في جائزة الشارقة للشعر.

صدر له:

مجموعات شعرية

أناشيد مبللة بالحزن (1998) دمشق: دار الجندي للنشر والتوزيع.

يا جبال أوبي معه (2001) الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام.

أمويّون في حلم عبّاسي (2005) دمشق: دار الينابيع للنشر والتوزيع.

مرّوا عليّ (2015) دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

حمام كثيف (2016) ميلانو: منشورات المتوسط.

الروايات

خربة الشيخ أحمد (2021) إسطنبول: دار موزاييك للدراسات والنشر.

طبعة ثانية (2022) دمشق: دار أرواد للطباعة والنشر.

في السيرة الذاتيّة

سرديّات رمضان (2022) القاهرة: نوستالجيا للإعلام والترجمة والنشر.



هل أعجبك هذا الكتاب! إذا كنت تريد اقتناء نسخة ورقية من هنا

لمشاركة الكتاب مجانا، فضلا لا ترسله كنسخة شاركه من هذا الرابط